قصص وطرائف من الحج

في القرون السوالف

محمد بن موسى الشريف

الطبعة الأولى

١٤٣١هـ — ٢٠١٠م

دار الأندلس الخضراء

جدة / هاتف : [illegible]
/ فاكس : [illegible]
الرياض / هاتف : [illegible]
/ فاكس : [illegible]
التوزيع / [illegible]

المكتبات : حي الصفا[illegible]
هاتف - فاكس : [illegible]
حي الثغر - شارع باقطين[illegible]
هاتف [illegible] - فاكس [illegible]

البريد الإلكتروني
alandalos1@gawab.com
ص.ب : ٤٢٣٤٠ جدة ٢١٥٤١

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد النبي الأمي الأمين، وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

فهذه بعض القصص والطرائف التي وقعت في زمان الحج المبارك، أُوردها لتكون عبرة للمعتبرين في جانبها القصصيّ الإخباري، وترويحاً عن النفوس في باب الطرائف والنوادر، سُقت ذلك لما له من أهمية في سَبْر أحوال النفوس، والكشف عن طبائع الناس وأحوالهم، وللترفيه والترويح عن النفوس بشيء من الترفيه والترويح الهادف اللطيف.

ولا تخلو الرسالة مع هذا من عبرة واتعاظ في بعض أحداثها وأخبارها، وحبذا أن تقرأ هذه الرسالة أيام منى لأنها أيام أكل وشرب وذكر لله تعالى، ففي الترويح في لياليها رخصة من الشارع الحكيم، وكان ذلك ديدن كثير من الحجاج في الزمن المتقدم والزمن الأخير، قال الأستاذ رشيد رضا(١) رحمه الله تعالى: "سمعنا من الشريف(٢) في منى كلمة جديرة بالحفظ والتدوين، قال:

---

(١) محمد رشيد بن علي رضا بن محمد القَلَموني البغداديّ الأصل الحسينيّ، صاحب مجلة "المنار" وأحد رجال الإصلاح الإسلامي. ولد في القلمون -من لبنان- سنة ١٢٨٢، وتعلم فيها وفي طرابلس، ثم رحل إلى مصر سنة ١٣١٥، فلازم الشيخ محمد عبده وتتلمذ له. ثم أصدر مجلة "المنار"، وصار مرجع الفتيا في التوفيق بين الشريعة والأوضاع العصرية الجديدة. ارتحل مراراً، وله مصنفات كثيرة، وجرت عليه أحداث حتى توفي سنة ١٣٥٤ بمصر رحمه الله تعالى. انظر "الأعلام": ٦/ ١٢٦.

(٢) أي الشريف حسين بن علي.

كانت أيام منى أول الإسلام من أطيب أيام الحياة -أي: لما تقدم بيانه من الجمع بين اللذات الروحية والبدنية والاجتماعية- فلما قَرَّبت المواصلات بين الأقطار الإسلامية البعيدة صار ينتقل الوباء إلى الحجاز مع الحجاج الموبوئين فيكون أشد فتكه عند اجتماع الناس في منى، فصارت أيام منى أيام غم وكدر يتعثر الناس فيها بالموتى في كل مكان، وتعد الحكومة لها الألوف من الأكفان، ونحمد الله أنه لم يمت فيها أحد في هذا العام لا بمرض وبائي ولا بمرض عادي أهـ بالمعنى.

أقول: من الشواهد المؤيدة لهذه الكلمة التاريخية كثرة ذكر منى في أشعار المتقدمين الغزلية ... وندرة مثل ذلك في غيرها من المشاعر ... فالتجلي الإلهي في جميع المشاعر أثناء أداء جميع المناسك تجلي هيبة وجلال إلا منى فإن التجلي فيها تجلي أنس وجمال، ولا تنس من تحلل الحاج فيها من الإحرام واستباحته ما كان محرماً من الأعمال، وكونها أيامَ عيد يُستحب فيها التمتع بالطيبات، وزد على ذلك أن لياليها هي الليالي التي يكمل فيها نور القمر، وأن هواءها اللطيف يحبب إليك السمر..."[1].

وقسمت القصص والطرائف إلى أبواب مناسبة، ورتبتها على السنين، وأسأل الله تعالى أن أكون قد جئت بشيء جديد، واستللت من القصص والطرائف ما هو مفيد ومروّح وسديد،

(١) "رحلة الحجاز" نقلاً عن "المختار من الرحلات الحجازية": ٣/ ٩١١-٩١٢.

وأن يجعله لي ذخراً يوم المثول بين يديه، والله تعالى أعلم وأحكم، وصل اللهم وسلم على سيدنا محمد النبي الأمي الأمين وعلى آله وصحبه أجمعين.

وكتبه

محمد بن موسى الشريف

mhmalshareef@gmail.com

www.altareekh.com

أخبار فلسطين في الحج...

لاشك أن فلسطين في قلب كل مسلم صادق الإسلام، وأن ما يحدث لها اليوم موجع لكنه مبشر بفجر قريب، وذلك أن أشد ساعات الليل ظلمة وحلكة ما كان منها قبل الفجر، ولابد لنا أن نثق بنصر الله تعالى والتمكين لكن بعد أن نكون عاملين مخلصين لهذا الدين العظيم، في الوقت الذي يشاؤه الله تعالى رب العالمين، بقدرته وحكمته.

لكن كيف كان حال فلسطين بالأمس؟ وكيف كان الحُجاج يُعرّفون بأحوال إخواننا هنالك، وصراعهم مع إخوان القردة والخنازير؟ هذا ما يحدثنا عنه الأستاذ محي الدين رضا[1]، حيث يقول واصفاً ذلك عندما حج سنة ١٣٥٣:

"معلوم أن من مقاصد الحج اجتماع المسلمين وتفاهمهم على ما فيه الخير لهم في دينهم ودنياهم والتفكير في ما يعود عليهم بالقوة والصلاح.

(١) أديب وصحفي. أصله من القَلَمون بلبنان، وولد بالقاهرة، وتوفي بها سنة ١٣٩٥، رحمه الله تعالى، بعد أن عاش نحو ٨٥ سنة، وهو ابن أخت الأستاذ محمد رشيد رضا رحمه الله تعالى. كان يعمل في القاهرة صحفياً في قسم الأخبار بجريدة المقطم، وله عدة مصنفات مطبوعة. انظر "الأعلام": ٧/ ١٧٠.

والفلسطينيون في هذه الأيام يعملون بجد ونشاط لدفع الخطر الصهيونيّ عن بلادهم لا يشغلهم شاغل عن ذلك، وقد قابلت بعض الإخوان منهم فعلمت أن من أكبر المقاصد التي حفزتهم إلى حضور موسم هذا الحج العمل على تفهيم المسلمين حالة فلسطين.

وقابلت فضيلة الشيخ محمد صبري عابدين المدرس بالمسجد الأقصى والحرم الإبراهيمي، ورأيته يوزع نشرات وبيانات على الحجاج فيها شرح لحالة فلسطين وما يجب عمله لخير المسلمين والعرب فيها ودرء الخطر الصهيوني عنها، ولقد أعطاني ثلاث نشرات وهي:

١. "بيان إلى إخواننا المسلمين كافة عن الحالة في فلسطين".

وقد جاء في آخره قوله: والذي يجب أن يفهمه المسلمون عامة هو أن كل يهودي في قطر من أقطار العالم يشترك بماله وبما استطاع من قوة يبذلها في سبيل تهويد فلسطين وإنشاء الدولة اليهودية فيها.

٢. "بيان إلى جمعية حراسة المسجد الأقصى والأماكن الإسلامية المقدسة في القدس".

وفيه رد على نشرة وزعتها الوكالة اليهودية وختم البيان بقوله:

من جميع ما تقدم يتضح للرأي العام الإسلامي أن ما جاء في نشرة الوكالة اليهودية المذكورة إنما يراد به التضليل فقط، وأن

المسلمين لم يغتروا حين صرحوا بأن لليهود مطامع في الأماكن الدينية الإسلامية، ولم يكونوا مغالين في مخاوفهم من تلك المطامع.

وأما ما جاء في تلك النشرة من البذاءة والامتهان فإن المسلمين يترفعون عن مقابلته بمثله، والله ولي التوفيق.

والنشرتان مدعمتان بالحجج والبراهين معززتان بالصور الزنكوغرافية المثبتة لما يريده الصهيونيون بفلسطين، وفيهما صور الأماكن المقدسة بفلسطين.

٣. "إنذار واستتابة".

وهي بقلم فضيلة العلامة الكبير السيد محمد رشيد رضا منشئ مجلة "المنار" الإسلامية الغراء بيّن فيها الخطر الصهيوني وواجب المسلمين.

وختمت الرسالة بفتوى واقتراح هذا نصهما:

"إن من يبيع شيئاً من أرض فلسطين وما حولها لليهود أو للإنكليز فهو كمن يبعهم المسجد الأقصى، وكمن يبيع الوطن كله؛ لأن ما يشترونه وسيلة إلى ذلك، وإلى جعل الحجاز على خطر، فرقبة الأرض في هذه البلاد هي كرقبة الإنسان من جسده، وهي بهذا تعد شرعاً من المنافع الإسلامية العامة، لا من الأملاك الشخصية الخاصة، وتمليك الحربي لداء الإسلام باطل، وخيانة لله ولرسوله ولأمانة الإسلام، ولا أذكر هنا كل ما يستحقه مرتكب هذه

الخيانة، وإنما أقترح على كل من يؤمن بالله وبكتابه وبرسوله خاتم النبيين أن يبث هذا الحكم الشرعي في البلاد مع الدعوة إلى مقاطعة هؤلاء الخونة الذين يصرون على خيانتهم في كل شيء: المعاشرة والمعاملة والزواج والكلام حتى رد السلام"[1].

(١) "رحلتي إلى الحجاز" نقلاً عن "المختار من الرحلات الحجازية": ٣/ ١٠٨٧-١٠٨٩.

أحوال إخواننا المسلمين ومناقشتها في الحج...

إن من أعظم الحكم في فرض الحج تعارف المسلمين وتناقل أخبارهم وأحوالهم، والحج في الحقيقة فرصة عظيمة لتحقيق هذا المقصد الكريم، وهذا الدكتور مصطفى السباعي[(١)] رحمه الله تعالى يحكي لنا بعض ما حصل له في الحج من تعارف وتآلف مع مسلمين ما كان ليراهم إلا في الموسم، ويحكي لنا بعضَ أحوالهم المؤلمة فيقول تحت عنوان "المسلمون اليتامى":

"إي والله يتامى، أشد ما يكون اليتم هواناً وضياعاً!

خرجت إلى باب الفندق أودعه، وعدت منكسَ الرأس كسير النفس كأني في متاهة وحدي، أو كأني أحلم حلماً شَروداً[(٢)] يكذبه كل ما حولي.

---

(١) هو مصطفى بن حسني السباعي، أبو حسان. ولد بحمص -من سوريا- سنة ١٣٣٣. عالم إسلامي مجاهد، من خطباء الكتاب. تعلم في حمص وفي القاهرة في الأزهر. اعتقله الإنكليز في مصر وفلسطين ستة أشهر، وأسلموه إلى الفرنسيين فسجنوه في لبنان ٣٠ شهراً. كان على رأس كتيبة من الإخوان تدافع عن بيت المقدس سنة ١٣٦٧. أحرز شهادة الدكتوراه من الأزهر، وصار أستاذاً في كلية الحقوق ومراقباً عاماً لجماعة الإخوان المسلمين، وعميداً لكلية الشريعة في دمشق، وأنشأ مجلة "حضارة الإسلام". وأصيب بشلل نصفي. ألف واحداً وعشرين رسالة وكتاباً، وتوفي في دمشق سنة ١٣٨٤ رحمه الله تعالى. انظر "الأعلام": ٧/ ٢٣١-٢٣٢.

(٢) الحلم الشرود: البعيد، الذي هو أقرب إلى أضغاث الأحلام منه إلى الرؤيا الصادقة.

إنه مسلم من "الفلبين" لا تقع العين منه على أمر يلفت النظر، فهو واحد من مئات الألوف من حجيج بيت الله، حتى إذا خلوت إليه وتحدث إليك عرفت فيه مسلماً يحمل بين جنبيه همَّ أمة بأسرها، وهمَّ دين عظيم، واستقبلت فيه وافداً من تلك الجزائر النائية في أقصى المشرق حيث يعيش مليونان من المسلمين.

كم من المسلمين من يعرف أنه له إخواناً في جزر الفلبين، وأنهم يبلغون في العد مليونين كاملين أو يزيدون؟

وكم في المسلمين من يعرف أن إخوانه في الفلبين ظلوا يقاتلون الإسبان الغزاة قرابة ثلاثة قرون منذ مطالع القرن السادس عشر، وتكرر فيهم ما حدث لإخوانهم في الأندلس من مذابح صرعت منهم آلاف الشهداء الميامين، وأنهم خاضوا في أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين معركة أخرى دامية مع الأمريكيين استمرت عشرين عاماً كاملاً؟!

وأحوالهم: دينهم؟ وتعليمهم؟ واجتماعهم؟ واقتصادهم؟ وعلاقتهم بغيرهم وعلاقة غيرهم بهم؟... مَن في مسلمي العالم خارج هذه الجزر يبالي بذلك كله فضلاً عن أن يرعاه رعاية الأخوة التي فرضها الإسلام؟!

وتداعى إلى النفس عديد من الصور الأخرى المماثلة لإخوتنا في الفلبين، هي الأقليات المنتشرة في أنحاء آسيا وحدها: بين ثلاثة وأربعة ملايين في الملايو، ومليونان في سِيام، ومليونان أو

أقل قليلاً في بورما، وأكثر من نصف مليون في سيلان، وأربعون مليوناً على الأقل في الهند... ووراء ذلك كله عدد لا يعلمه إلا الله في الصين الشعبية والصين الوطنية: ذكرت آخر الإحصاءات عنهم قبل ثلاثين سنة أنهم حول خمسين مليوناً، وتذكر لنا المراجع الرسمية اليوم أنهم لا يزيدون عن اثني عشر مليوناً[١]، وليس لنا مرجع آخر نلتمس عنده العدد الحق لملايين اليتامى! وغير هؤلاء جميعاً عشرات الملايين كانت لهم جمهوريات قائمة وثروات زاخرة وعلم وجهاد، شردهم ومكّن من تشريدهم غفلة المسلم وغدر العدو ومسخ التاريخ!!

في غمرة هذه الخواطر ودَّعت "أخا الفلبين" بعد أن عشت معه وقتاً طيباً نتناول المر والحلو من أخبار ديننا وأمتنا عنده وعندنا.

ورجعت إلى بهو الفندق وقد وددت لو تركني الضيوف الكثر لصدري المليء أخلو إلى ما فيه، ولكنه الهم الموصول تتقلَّب به النفس بين حسرات موجعات، والأمانة الثقيلة لا فكاك منها مهما ثقل الصدر وتعددت الواجبات.

وفي بهو الفندق كان ينتظرني أخوة من تركستان، جاءوا يبثون همّهم، وبعض همهم مشكلات خاصة لا تكاد تنتهي، وبعضه حيرة قاسية وخشية على أنفسهم وعلى المسلمين.

---

(١) كل هذه الأعداد كانت في زمانه يوم حج سنة ١٣٧٧ رحمه الله تعالى.

ودُعيت إلى الهاتف فكان المتحدث عالماً فاضلاً من باكستان، يطلب موعداً أذهب فيه إليه في مكة، أو يجيء فيه إلى جدة، والموعد يتصل بمشكلة من مشكلات الحركة الإسلامية في باكستان:

مشكلة موضوعها مناهج الحركة الفكرية والسياسية والتنظيمية، وهو موضوع قائم بذاته، عام لا يخص قطراً وحده، مليء لا تعالجه إلا هَدْأَة من النفس والفكر والأحداث، ومن أين لنا هذه الهدأة؟ وكيف يسوغ علاجه بدونها؟ ثم كيف يُغفله العاملون إذا كانوا يريدون أن يشقوا طريقهم الوعرة على بصيرة؟

وفي زاوية من البهو كان يجلس شاب أندونيسي سمح النفس والوجه، أكرمني بزيارته ثم رضي مني بالمشغلة عنه، ويعلم الله أني بهذه المشغلة كنت أقربَ ما أكون إليه، وأن وجهه الصامت كان يتكلم في نفسي كلامه الذي سمعته منه في منىً قبل ليال فنكأ الجرح الغائر ولبَّد النفس بسحابة جديدة قاتمة، وإن كلماته:

"محنتنا كمحنتكم يا أبا أيمن، بل لقد والله انكسرت نفوسنا منذ أصابكم ما أصابكم!" لا تزال تعتصر نفسي وتذكي ضرامها.

وأدار بعض الجلوس "حبَّة" المذياع، فكانت نشرة الأخبار عن معارك لبنان وضحاياها، وعن معركة في الجزائر تزعم فرنسا

الفاجرة أنها قتلت فيها عدداً من المجاهدين[1]، ولكنه خبر في مؤخرة النشرة وفي عجيج من الأحداث!

وبين ذلك كله دخلت مجموعة من الوجوه ذات السمرة الداكنة، تجللها عمائم بيضاء ناصعة، وتلمع منها أعين صافية، فألقوا تحية الإسلام في عربية تشوبها لكنة عذبة، وأخذوا مجالسهم في انتظار بعض أصدقائهم، حتى إذا عزموا على الخروج سألت أقربهم إلي عن بلده فقال: إنها "زنجبار"، وعرفني باسمه وبلدته، وسألني عن اسمي وبلدي فأجبته، فإذا هو يهجم عليَّ معانقاً هجمة أخ طال فراقه، ويقول: يا أخي إني أبحث عنك والحمد لله أن جمعني بك، فتواعدنا إلى قابل، وتركني دامع القلب مهيج الشَجَن، بين فرحة باكية بهذه العاطفة في الله رغم المحن، وحسرة موجعة تراودني أشباحها في ملايين المسلمين المضيَّعين في إفريقيا السوداء.

آه... وما تنفع آه؟!

هذه الصورة العديدة الماثلة، مبعثرة هكذا في كل أصقاع ديار الإسلام، ومحشودة هكذا في موسم الحج الذي عقم في حياة المسلمين عقماً كالحاً، يطالعك من كل واحدة منها سؤال واحد هو موضع الداء، وفي جوابه -قبل سواه- تتحدد بداية السُرى لقوافل المسلمين اليتامى في عتمة هذا الظلام.

---

(١) وذلك وقت جهاد إخواننا في الجزائر قبل الاستقلال.

قضية الإسلام وأهله، من أصحابها؟

إن القضية التي ليس لها صاحب يرعى حجتها، ويدحض حجة خصمها، أو خصومها، ويعد لها وثائقها ومستنداتها، ويتابع جلساتها، قضية ضائعة مهما كان قضاتها عدولاً، فكيف إذا جلس الخصوم في الدنيا مجالس القضاة لها ولأهلها؟ وكيف إذا غابت معالمها هي عن أصحابها؟ ثم كيف إذا غاب عن أهلها أنهم أصحابها، وأن معركتها هي حقيقة المعركة في كل معرفة؟!

إنه والله الضياع الذي ليس وراءه ضياع!"[1]. إلى آخر كلامه رحمه الله تعالى.

---

(١) مجلة "المسلمون": المجلد السادس العدد الرابع ٣٠٩-٣١٢. وكلامه رحمه الله تعالى يصف حال المسلمين قبل الصحوة المباركة التي جرت بعد هذا الكلام بقرابة خمسة عشر عاماً، ولله الحمد.

قصص بعض مسلمي الغرب في الحج...

قصص مسلمي الغرب تبعث في النفس الاعتزاز والفخر، وأن هذا الدين محفوظ بحفظ الله تعالى له وكفالته إياه، وقصص مسلمي الغرب الأوائل الذين وردوا الديار الحجازية حاجين نادرة، فمن ذلك ما حدّث به أحد كفار الغربيين الذين دخلوا الحجاز وهم باقون على كفرهم، وهو جوزف بتس[١]، حدث عن حال أحد الإيرلنديين المسلمين الذين حسن إسلامهم فيقول:

"يحمل كل حاج مؤنة معه وكذلك ماءه وفراشه...إلخ، وعادة ما يتجمع كل ثلاثة أو أربعة معاً لتناول الطعام، ويدعون في بعض الأحيان أحد فقراء الحملة لتناول الطعام معهم، وكان يوجد إيرلندي مرتد[٢]، أخذوه صغيراً جداً لدرجة أنه لم يفقد دينه المسيحي فقط بل لغته الإنكليزية أيضاً، وهذا الرجل عانى من العبودية ثلاثين عاماً في إسبانيا وفي السفن الفرنسية، لكنه بعد ذلك تحرر وعاد للجزائر، وكان الناس ينظرون له كرجل صالح تقي متدين لأنه لم يترك العقيدة الإسلامية رغم تعرضه للغواية كي يتركها، وكان بعض جيراني الذين قصدوا للحج في العام

(١) هو شاب إنكليزي، كان قد أُسر في البحر الأبيض وهو فتى لا يتجاوز السابعة عشرة، ثم قسره سيده على الإسلام لكنه لم يسلم في باطنه، وأخذه معه إلى الحج.

(٢) يعني أنه مسلم.

نفسه الذي حججت فيه مع سيدي قد عرضوا على هذا الإيرلندي المرتد أن يتكفلوا بتكاليف حجه إن خدمهم أثناء الرحلة، فقبل العرض سعيداً، وأذكر أننا عندما وصلنا إلى مكة المكرمة قال لي بعاطفة جياشة: إن الله -سبحانه- نجاه من جهنم على الأرض، ويقصد بهذا فترة عبوديته في إسبانيا وفرنسا وأن الله -سبحانه- قد مكنه من الوصول إلى جنته على الأرض، ويقصد بهذا مكة المكرمة، وقد عجبت كثيراً لفرط حماسه وإيمانه، لكنني أشفقت عليه[(١)] [(٢)].

ويتحدث الأستاذ الدكتور محمد حسين هيكل[(٣)] رحمه الله تعالى، عن أحد المسلمين الغربيين من إيرلندا أيضاً فيصف لقاءه به وحديثه معه، وهو حديث لطيف عندما حج سنة ١٩٣٦:

"خرجت من قبتي أتعرّف ما حولي، وأشهد صنيع الناس يومَهم هذا وقد جاؤوا إلى الله حاجِّين متجردين، وإني لأتلفت يمنة ويسرة إذ وقع بصري على رجل لا شيء في سيماه يدل على

---

(١) ينبغي أن يشفق هذا المسكين على نفسه أما ذلك العاقل فهو في سعادة ونعيم، إن شاء الله تعالى.

(٢) "رحلة جوزف بتس" نقلاً من "المختار من الرحلات الحجازية": ١/ ٣٤٧-٣٤٨.

(٣) محمد بن حسين بن سالم هيكل. ولد في قرية كفر غنام بالدقهلية بمصر سنة ١٣٠٥. كاتب، صحفي، مؤرخ، من أعضاء المجمع اللغوي، ومن رجال السياسة. تخرج في مدرسة الحقوق بالقاهرة، وحصل على الدكتوراه في الحقوق من السربون بفرنسا، تقلب في المناصب الصحفية والحكومية حتى صار وزيراً للمعارف ثم رأس مجلس الشيوخ. توفي بالقاهرة سنة ١٣٧٦ رحمه الله تعالى. انظر "الأعلام": ٦/ ١٠٧.

أنه من أبناء الشرق، بل هو أدنى إلى أن يكون من أبناء الشمال في أوروبا بطول قامته النحيفة وببشرته البيضاء المشربة حمرة وعينيه الزرقاوين وشعره الأصفر، وأخبرني بعض أهل مكة ممن حوله أنه هولندي يقيم بجاوة، وأنه جاء يؤدي فريضته، ودلفت إليه وألقيت عليه التحية بالفرنسية، وتحدَّثت إليه بها، فدلتني لهجته على أنه ليس من أهل هذه اللغة وأن أغلب أمره أن يكون إنكليزياً، وسألته عن جنسيته فعلمت أنه إيرلندي وأنه أسلم من سنوات خمس، وأنه جاء ليؤدي الفريضة، فأقام بجدة سبعة أسابيع حتى أيقن رجال الحكومة العربية من حسن إسلامه وسمحوا له بما يسمح للمسلمين دون غيرهم من دخول مكة ومن أداء فروض الحج ومناسكه.

واتصل بيني وبينه بالإنكليزية حديث طويل، ومع ذلك لم تطاوعني نفسي على سؤاله عن سبب إسلامه، وعلى رغم ذلك أخبرني أنه في إقامته بسرواك[1] بين المسلمين منذ أكثر من خمس عشرة سنة لم تطب نفسه بما دون التعمق في درس حالتهم الاجتماعية والأخلاقية، والبحث -بوصف كونه إيرلندياً- عن الأسباب التي أدت بهم إلى الخضوع لغيرهم، وكانت عقيدتهم الدينية بعض ما عُني بدراسته، ولم يلبث حين بدأ هذه الدراسة أن شعر بحافز قوي يحفزه للإمعان فيها ولقراءة ما كتب في اللغات

(١) سرواك في ماليزيا اليوم.

المختلفة عنها وللتزيد من ذلك ولطول التفكير فيه، ولقد أخذت بساطة العقيدة الإسلامية بمجامع قلبه، ووصلت من تفكيره إلى أعماقه وجعلته يؤمن بحقيقة هذا الدين الذي نزل على النبي العربي وبحضارة الأخوة والإباء التي يدعو إليها.

ويؤمن بأن الحضارة التي تنشر أوروبا اليوم لواءها في العالم باسم العلم ليست من العلم في شيء، وإنما هي اللعنة التي صبَّها الله على العالم؛ فهذه الحضارة تتلخص عنده في إخراج الناس من بساطتهم الفطرية التي تكفل لهم سلامة التفكير وسموّ الغاية، ليخضعوا لأهوائهم وشهواتهم المادية فتضعف نفوسهم ويذلّوا، وأية صلة بين سعادة الرجل أو المرأة وبين منسوجات (لانكشير) أو حرائر (ليون) أو عطور (باريس) أو ما إلى ذلك من مواد الزينة والترف، وهذه مع ذلك هي مظاهر الحضارة الأوروبية وهي السبب الحقيقي الذي تغزو أوروبا العالم من أجله، إنما الصلة الحقيقية بين هذه المنسوجات والحرائر والعطور وبين الأموال التي تريد أوروبا استنزافها من الشعوب هي إقناعها كذباً بأن الحضارة في الرداء والترف والزينة.

أما الإسلام فيدعو إلى معنى هو أسمى المعاني، إلى نبذ كل عبودية لغير الله، وإلى الاستهانة بالموت في سبيل الله، وإلى البر والتقوى، وإلى الرحمة والمغفرة، وهو يدعو إلى ذلك كله في بساطة وقوة لا حاجة بهما إلى منسوجات، أو حرائر، أو عطور، ولو أن

المسلمين أدركوا سر الإسلام إدراكاً عميقاً لهان عندهم ما يعرضه الغرب عليهم، ولما خضعوا لحكم الغرب ولا ذلّوا لسلطانه؛ فدينهم يربأ بمن يؤمن به عن الخضوع لغير الله ويجعل الموت في سبيل التخلص من هذا الخضوع موتاً في سبيل الله يُجْزَى صاحبه الجزاء الأوفى.

وأعجبت بحديث صاحبي أيما إعجاب، لأنه صادف موضع العقيدة مني؛ فسألته عما جاء به إلى الحجاز وعن رأيه في حكمة الحج، وكان جوابه على سؤالي كحديثه الأول حصافة ودقة، قال: إنما فرض الإسلام الحج لِيُشْهد المسلمُ اللهّ على نفسه أمام ملأ إخوانه المؤمنين جميعاً أنه نبذ ما اختلط بحياته قبل الحج من ذنوب وأوزار، والله يغفر له ما صدق التوبة، لِيُولَدَ ميلاداً روحياً جديداً يكون بعده خيراً مما كان قبله من علم وبصيرة.

وخشينا أثر الشمس فصرنا نقصد مضاربنا، ولم نبتعد إلا خطوات وإذا صاحبي يدعوني أن أدخل معه إلى خيمته لنشرب فنجاناً من الشاي معاً فدخلت الخيمة معه، فألفيت بها سريرين جعلهما مضجع الليل ومتكأ النهار له ولزوجه، وزوجه امرأة مسلمة من أهل سرواك، عرفها وأحبها، فلما أسلم تزوجها وجاء بها تؤدي فريضة الحج معه.

وعدنا إلى حديث طويل تكلم أثناءه صاحبي عن المسلمين وعدم إدراكهم قوتهم العظيمة بسبب ما تخدعهم به مزاعم

الغرب، فهؤلاء المسلمون يزيدون في آسيا وحدها على مائتي مليون؛ ولو أنهم أدركوا مبلغ قوتهم وأدركوا قيمة حياتهم الروحية وعظمتها لاستطاعوا تجديد نشاط الإنسانية، لكنهم متروكون إلى جهالتهم ليسهل خداعهم واستغلالهم، قانعين لذلك بضعفهم وراضين عن هوانهم"[1].

---

(١) "في منزل الوحي" نقلاً عن "المختار من الرحلات الحجازية": ٣/ ١١٥٨-١١٦١.

قصص وطرائف مروية عن أحوال الأعراب في الحج...

قد كثر في كتب الأدب الحديث عن الأعراب وأحوالهم، وجفائهم وغِلظ طباعهم، ومضحكاتهم، وانطباع نفوسهم على الصراحة وعدم المجاملة بل انتفائها كلية، لكن مع ذلك تبقى فطرهم نقية وعباداتهم خالصة مع قلتها وعدم المتابعة فيها للقواعد الشرعية.

ومن أحوالهم الظريفة في الحج ما جاء في بيان صلاتهم، وأمرهم فيها غريب عجيب، وقد وصفها عدد من أدباء الحجاج، فهذا ابن جبير[1] رحمه الله تعالى يقول واصفاً حالهم في الصلاة، وكانوا من أعراب جبال السروات، وكان قد رآهم في حجته التي حجها سنة ٥٧٨:

"وأما صلاتهم فلم يُذْكَر في مُضحِكات الأعراب أظرف منها، وذلك أنهم يستقبلون البيت الكريم فيسجدون دون ركوع، ويَنْقُرون[2] بالسجود نقراً؛ ومنهم من يسجد السجدة الواحدة، ومنهم من يسجد الثنتين والثلاث والأربع، ثم يرفعون رؤوسهم

(١) محمد بن أحمد بن جُبير الكنانيّ الأندلسي الشاطبي البَلَنْسي. رحالة، أديب. ولد في بَلَنْسِيَة سنة ٥٤٠، ونزل بشاطبة. برع في الأدب، ونظم الشعر الرقيق، وأُولع بالترحال والتنقل فزار المشرق ثلاث مرات. مات بالإسكندرية في رحلته الثالثة سنة ٦٤١، رحمه الله تعالى. انظر "الأعلام": ٥/ ٣٢٠.

(٢) ينقرون: يسرعون في السجود.

من الأرض قليلاً وأيديهم مبسوطة عليها، ويلتفتون يميناً وشمالاً التفاتَ المُروَّع[1]، ثم يسلّمون أو يقومون دون تسليم ولا جلوس للتشهد، وربما تكلموا في أثناء ذلك، وربما رفع أحدهم رأسه من سجوده إلى صاحبه وصاح به ووصاه بما شاء ثم عاد إلى سجوده، إلى غير ذلك من أحوالهم الغريبة.

ولا مَلبَس لهم سوى أُزُرٍ وَسِخَةٍ أو جلود يستترون بها، وهم مع ذلك أهل بأس ونجدة، لهم القِسِيَ العربية الكبار كأنها قسي القطّانين[2] لا تفارقهم في أسفارهم، فمتى رحلوا إلى الزيارة هاب أعراب الطريق المُمسِكون للحاج مَقْدَمهم، وتجنّبوا اعتراضهم، وخَلّوا لهم عن الطريق، ويصحبهم الحجّاج الزائرون فيحمدون صحبتهم، وعلى ما وصفنا من أحوالهم فهم أهل اعتقاد للإيمان صحيح، وذُكِر أن النبي ﷺ ذكرهم وأثنى عليهم خيراً، وكفى بأن دخلوا في عموم قوله ﷺ: "الإيمان يَمَانٍ"[3] إلى غير ذلك من الأحاديث الواردة في اليمن وأهله.

---

(١) أي الخائف.

(٢) القطانون: بائعو القطن.

(٣) الحديث مروي بطرق كثيرة، وهو صحيح إن شاء الله تعالى. انظر "مجمع الزوائد": ١٠/٥٨-٥٩.

وذكر أن عبدالله بن عمر، رضي الله عنهما، كان يحترم وقت طوافهم ويتحرى الدخول في جملتهم تبركاً بأدعيتهم، فشأنهم عجيب كله"[1].

وهذا القاسم التُجَيْبِي"[2] يصف حالهم أيضاً عندما حج في حدود سنة ٦٩٦، فيقول:

"ومن عجائب البيت المكرم المعظم أن الحرم الشريف على كبره واتساعه يكون قد غصّ بالناس فإذا فتح باب البيت المطهر دخل جميع الناس أو أكثرهم فيه، فيسعهم ولا يضيق بهم، وعاينا من ذلك عجباً، وخصوصاً عند وصول الطائفة المعروفة بالزَيْلع، وكان قد وصل منهم في سنة ست وتسعين المذكورة عدد لا يحصى كثرة، وهم قوم من جبال اليمن[3]، لا يألفون المدن ولا الحواضر، وكأنهم قد نشروا من قبورهم لضعف أبدانهم، فليس عليهم من اللحم شيء، وأضلاعهم تعد من أجنباهم، وليس عليهم من اللباس إلا ما يواري سوأتهم خاصة، وليس يحسنون شيئاً من العبادات، ولا من أمور الشريعة كلها.

(١) "رحلة ابن جبير" نقلاً عن "المختار من الرحلات الحجازية": ١/ ٧٦-٧٨.

(٢) هو القاسم بن يوسف بن محمد التجيبي السبتيّ. حفظ القرآن بالروايات، ودرس التفسير والحديث والمصطلح والفقه والتصوف والعربية. توفي رحمه الله تعالى سنة ٧٣٠، كما جاء في تعريف المحقق به.

(٣) وذكر ابن بطوطة حالهم وفصّل فقال: هم من غامد وزهران وبجيلة. انظر رحلته ص١٧٧.

وما رأيت أضحك من صلاتهم، تبصر أحـدهم وهـو يكلـم صاحبه بما يعرض له من أموره وهو في الصلاة، والمسـبوق مـنهم يسلم بسلام الإمام وإن لم يدرك معه إلا ركعة واحدة، أو سجدة، أو أقل أو أكثر، وربما انحط من قيامه فأصلح شيئاً بين قدميه وهـو يصلي، وربما انتقل من موضع إلى موضع إلى غير ذلك من الأمور الخارجة عن فعل الصلاة.

وأما دخولهم إلى البيت الشريف فمن أغرب ما يُـرى أيضـاً؛ لأن بعضهم يتماسك ببعض في حال الدخول فيتصل مـنهم عـدد كثير على هذه الصفة، وربما ازدحموا على أدراج البيت الشـريف، فيسقط أحدهم ويسقط بسقوطه جماعة، لتماسك بعضهم بـبعض، وإذا دخلوا البيت الشريف تطارحوا على أركانه، وجميـع نواحيـه، ويـأتون إلى بـاب الكعبـة فيـدخلون أيـديهم في حلقـتي البـاب، ويزدحمون على ذلك ازدحاماً عظيماً، وكأن ذلك عندهم من جملة المناسك، وكذلك يزدحمون أيضاً على لمس بـاب الرحمـة المـذكور، والذي بداخل الكعبة.

وإذا تطارح أحدهم على موضع من مواضع البيت يريـد ألا ينفصل منه، حتى اتفق لبعضهم -ونحن بالحرم الشريف- أن أتـى إلى باب الرحمة المذكور يوم جمعة ودخله وأغلقـه عليـه، وأحـد لا يشعر بذلك، فلما خرج الرجال مـن البيـت ثـم النسـاء بعـدهم، أغلق الحَجَبِيّ باب الكعبة -على عادته- وهو لا يعلـم بـه، فبقـي الزيلعي داخل البيت، ولم يدر مـا يصـنع ولا أيـن يـذهب، إلى أن

ألهمه الله تعالى إلى صعود الأدراج التي داخل البيت الشريف، فظهر على سطح الكعبة المشرفة عند مغرب الشمس من ليلة الاثنين، فرآه الناس فصاحوا بالشيبي المذكور، فأتى بالمفتاح فحل عليه الباب، فنزل وقد كان يئس من الحياة، وأشرف على الهلاك"[(١)].

وقال أيضاً يصف أحوالهم:

"وليس عندهم من أمور الشريعة شيء -كما قدمنا ذكره- غير النطق بالشهادتين وحسن النية والدعاء الذي يصدع القلوب، ويفجر العيون الجوامد، فبحسن نياتهم يُرْجَى لهم الخير، ومن تمسك منهم بأمور الشريعة وأحكامها عظم شأنه وجل مقداره.

ومن غريب ما أخبرني به بعض أصحابنا الثقات بالمسجد الحرام عن حسن كلام الزيلعيين أن قال: جاءت اليوم امرأة من الزيلع إلى حيال الحجر الأسود، فسمعت طائفة منهم يدعون بدعاء حسن، ويسألون مطالب لهم، فقالت: اللهم إنك تعلم أني لا أحسن أن أدعو مثل دعائهم، وتعلم أني أسأل منك مثل الذي يسألون، فأعطني مثل ما تعطيهم، ثم انصرفت"[(٢)].

(١) "مستفاد الرحلة والاغتراب" نقلاً عن "المختار من الرحلات الحجازية": ١/ ١٨٤-١٨٥.
(٢) المصدر السابق: ١/ ١٨٦.

وقال الشيخ أبو سالم العياشي[1] يصف بعض أحواهم حين حج سنة ١٠٧٣:

"أخبرني شيخنا الملا إبراهيم عن الشيخ القشاشي[2] أنه بينما هو ذات يوم عند المواجهة إذ جاء أعرابي في شملته وبيده عصاة حتى وقف أمام الوجه الشريف، فضرب بعصاه الأرض مرتين وهو يقول: يا محمد، يا محمد، لا تقل أنا ما جئتك هأنذا، فذهب ولم يزد على ذلك، وكان الشيخ يقول: عسى أن يكون ذلك نافعاً له عند الله، فإن ذلك مبلغ علمه، ولو كان يرى أن أكثر من ذلك ينفعه ويقضي به حق تعظيمه لفعله.

وبالجملة، فعرب الدرب[3] والحجاز وتهامة ونجد أجهل العرب وأكثرهم جفاء، قلما تجد أحدهم يحسن شيئاً من رسوم الشريعة الظاهرة من صلاة وصيام إلا القليل، وعوام الأعراب والبربر بمغربنا بالنسبة إلى هؤلاء فقهاء، فلا تجد عامياً بالمغرب وإن

---

(١) هو عبدالله بن محمد بن أبي بكر العياشيّ، أبو سالم. فاضل من أهل فاس، ونسبته إلى آية عياش قبيلة من البربر ولد سنة ١٠٣٧ وتوفي سنة ١٠٩٠ رحمه الله تعالى، وترك عدة تصانيف. انظر "الأعلام": ٤/ ١٢٩.

(٢) هو أحمد بن محمد بن يونس، صفي الدين الدَجانيّ القُشاشيّ الصوفي. أصله من القدس وانتقل جده إلى المدينة، وكان متصوفاً متقشفاً فاحترف بيع القُشاشة -وهي سقط المتاع- فعُرف بالقُشاشيّ، وولد حفيده بالمدينة. وكان مالكيّ المذهب وتحول شافعياً وصار يفتي بالمذهبين. له نحو سبعين كتاباً أكثرها في التصوف. توفي بالمدينة سنة ١٠٧١ رحمه الله تعالى. انظر "الأعلام": ١/ ٢٣٩.

(٣) أي درب الحج.

بلغ الغاية في الجفاء إلا وهو يعلم أن الصلاة ذات ركوع وسجود وإن كان لا يحسن أن يقرأ فيها، ويعلم وجوب صوم رمضان، بل هو أشد عندهم من الصلاة بخلاف هؤلاء، فقد أخبرني مخبر عن عرب الدرب أنه سأل بعضهم: هل صام أم لا؟ وهو رجل كبير كهل، فقال: إني إلى الآن لم أصم، لكن أبي صام ثلاثة أيام، فاستفهمه عن ذلك فقال: إن الرجل عندنا إذا قارب أوان الهرم والشيخوخة صام ثلاثة أيام، فيقولون فلان صام، وذلك علامة بلوغه حد الكبر، وأما قبل ذلك لا يعرف صياماً ولا غيره.

وهم جديرون بذلك لبعدهم عن الأمصار وقلة القرى في بلادهم فلا يجدون أحداً يعلمهم الخير ولا يرشدهم إليه، وعلى تقدير دخولهم الأمصار، في بعض الأحيان فلا يلقي إليهم أحد بالاً، ولو رآهم أكبر فقهاء الأمصار يصلون الصلاة المتقدمة من تتابع السجدات لا يزيد على أن يضحك منهم أو يتغافل ويذهب عنهم، فمتى يعرف هؤلاء صلاة أو صياماً أو حداً من حدود الشريعة؟ ولقد رأيت رجلاً بينبع ظهر الشيب في مفرقه فسألته عن مكة فقال لي: ما حججت قط، وبينه وبين مكة ثمانية مراحل، وسألته عن المدينة فقال لي: دخلتها مرتين أو ثلاثاً، وبينه وبينها ثلاث مراحل، وأمثال هؤلاء كثيرون"[1].

---

(١) "ماء الموائد" نقلاً عن "المختار من الرحلات الحجازية": ١/ ٣٢٥-٣٢٦.

وقال أيضاً يصف أحوال الأعراب ليلة السابع والعشرين من رجب التي سماها ليلة المعراج[1]:

"قدم خلق كثير من الأعراب، وكانت بالمدينة سوق عظيمة، وامتلأ المسجد وجوانبه، فما من يوم إلا ويزداد الخلق فيه كثرة، وأكثرهم عرب جفاة ليس لهم دين ولا مذهب، جلهم لا يعرف صلاة وصوماً، فتدخل جماعة منهم المسجد غاسلين أطرافهم يريدون الصلاة على زعمهم، فيقف أحدهم ملياً، ثم يسجد على قدر ما يرى إما ثمان سجدات أو عشر سجدات أو أكثر على حسب نشاطه، ثم ينصرف، وغالبهم على هذا الوصف، ومنهم أفراد يدينون دين الحق، وسلامهم على النبي ﷺ: "حيا الله أمحمد"، رافعين بها أصواتهم.

فإذا كانت الليلة السابعة والعشرين تكامل حشد الناس، فمن لم يدخل المسجد من قريب من العصر قلما يجد موضعاً لصلاة المغرب والعشاء، فيغص المسجد بمن فيه، ويفتح الحرم طول الليل، ويبيت الناس في ذكر وقراءة وصلاة، كل حسب ما يسنح له إلى الصباح، فإذا أصبح الناس أخذ الأعراب في التوديع، فيسمع لهم حنين كحنين الإبل، في المسجد، وصياح وصراخ رافعين أصواتهم بالصلاة على النبي ﷺ، فيرق قلب سامعهم

(١) لم يثبت كون المعراج ليلة السابع والعشرين من رجب وإن كان ذلك مشهوراً، والله أعلم.

ويحن ويشفق لهم على جفائهم وجهلهم، فلا يأتي مساء ذلك اليوم حتى لا يبقى بالمدينة منهم إلا القليل، وعسى الله أن ينفعهم بحسن نياتهم"[1].

وقال الأستاذ إبراهيم رفعت[2] -رحمه الله تعالى- واصفاً حال بعض الأعراب في المسجد الحرام، وذلك عندما حج سنة ١٣١٨:

"إحرام العربان عبارة عن كشف أذرعهم ورؤوسهم، وباقي جسدهم مستور، وشعرهم منثور غير منتظم، وأكثرهم طويل الشعر، مضفوره أشبه بشعور النساء عندنا، أما نساؤهم فمحتجبات لا يكاد يبدو منهن شيء، والرجل يقول في طوافه: يا رب البيت اشهد أني جيت لا تقول ما جيت، اغفر لي ولوالدي وإلا تغفر لي غصباً تغفر لي، تراني حجيت، يقول ذلك بصوت جَهوري مزعج ويسرع في مشيه في الطواف والسعي، ويأخذ الرجل بيد زوجته أو أخته أو أمه ويسرع بها في السير، وعندما يصل بها إلى الحجر الأسود يرفعها ويضع رأسها في تجويف الحجر وإذ ذاك تمسح وجهها وشعرها ويقول لها: "حجي يامَرَهْ حجي"،

(١) "ماء الموائد" نقلاً عن "المختار من الرحلات الحجازية": ١/ ٣٢٤-٣٢٥.

(٢) إبراهيم رفعت باشا بن سويفي بن عبدالجواد المليجي. مؤرخ مصري، من أمراء الحج العسكريين. ولد في أسيوط سنة ١٢٧٣، وتخرج في المدرسة الحربية بالقاهرة، وحضر بعض المعارك الحربية في السوادان. تتلمذ في أوقات فراغه لبعض علماء الأزهر. مُنح رتبة اللواء العسكرية. له إطلاع واسع. توفي سنة ١٣٥٣ بالقاهرة رحمه الله تعالى. انظر "الأعلام": ١/ ٣٩.

وتقبيل الحجر عندهم فريضة لازبة[1] لا يتركونه ولو ماتوا دونه، ومن كثرة زحام هؤلاء العربان على الحجر وإدخالهم الرؤوس في تجويفه حصل به خدش أُصلح فيما بعد، ومات أحد الحجاج أثناء الطواف من شدة الزحام.

ومما سمعته محاورة بين اثنتين من نساء العربان قالت إحداهما للكعبة: "يا ست ليلة -لعل تسميتها ليلة لأنها سوداء وكسوتها سوداء- إن كان جاتنا المطر في ديارنا وجانا الخير أجيب لك عُكِّيَّة سمن "قربة صغيرة" تدهني بها شوشتك -لأن العربان يزعمون أن الكعبة امرأة تدهن رأسها- فقالت الثانية: حقيقة تجيبي لها، فقالت لها: اسكتي أن عمال أكذب عليها إذا جاتنا المطر ما أجيب" فانظر كيف بلغ أدب العربان في خطاب الرب حداً سيئاً وكيف بلغت من نفوسهم الاعتقادات الفاسدة، ما ذلك إلا من فرط جهلهم بالدين فهل لأولئك من مرشدين!"[2].

وقال الأستاذ محمد لبيب البتنوني"[3] -رحمه الله تعالى- يصف حال الأعراب في المسجد الحرام وما يصنعون فيه:

"يظهر للمتأمل في طواف البدو الآن -وعلى الخصوص أهل الشروق من عتيبة ومطير- أن حجهم ألصق بالبيت منه بعرفة،

---

(١) مثل لازمة وزناً ومعنى.

(٢) "مرآة الحرمين" نقلاً عن "المختار من الرحلات الحجازية": ٢/ ٦٧٥.

(٣) فاضل مصري له اشتغال بالأدب والتاريخ. توفي بالقاهرة سنة ١٣٥٧ نسبته إلى البَتَنون من المنوفية بمصر.

ذلك لأن هؤلاء القوم يفدون على مكة في الخمس الأُوَل من شهر ذي الحجة، فيرتبون مساكنهم شرق المدينة من خارجها، ثم يدخلون المسجد الحرام جماعات جماعات، ويطوفون حول البيت طواف القدوم ماسكين بأيدي بعضهم، لا يوافقهم في طوافهم زحام المطاف بغيرهم، بل يأخذون في طريقهم كل من صادفهم فيه وهم يقولون: "الله، محمد، لبيك لبيك، حجيت، تقبل أو لا تقبل حجيت، ألا تقبل"[1]، وإذا كان معهم نسوة ولا يكن في الغالب إلا من المتقدمات في السن تراهم في مؤخرتهم ماسكات بأكتافهم، ولا يظهر منهن سوى أعينهن وفي أيديهن القفازات، حتى إذا وصل الكل إلى الحجر الأسود تعلق المتقدم منهم بكسوة الكعبة، وأمسك بها بقوة بحيث لا يزحزحه عنها أحد، وتبعه إخوانه وأزاحوا غيرهم من المستلمين بقوة وصبر لا يَعْتَوِرُهما[2] ملل، محتملين في ذلك ضرب الضارب وانتهار الناهر، حتى إذا كشفوا الناس عنه واستلموه جميعاً وقبّلوه أتت نساؤهم لتقبيله، فيضرب الزوج رأس امرأته لتصطدم جبهتها في الحجر، فيحصل فيها أثر يكون عندهم علامة الحج، وعندها يصرخ الرجل قائلاً لزوجته: "حجيت يا حاجة؟" فتصيح قائلة: "حجيت، حجيت" ثم

(١) في هذا تجاوز واضح من هؤلاء الأعراب لكونهم لا يفقهون أصول الخطاب ولا يتحرون الأدب في التعامل، وأرجو أن يُعذروا بنياتهم.

(٢) أي لا يخالطهما.

تلتفت إلى الحجر الأسود قائلة: "حجيت، خبِّر ربك[1] إني حجيت" ثم ترفع رأسها إلى السماء قائلة: "تقبل أو لا تقبل حجيت، إلا تقبل غصباً تقبل[2]"، هذا كله قبل وقوفهم بعرفة، ومنه ترى أن اعتبارهم أنفسهم أنهم حجوا بمجرد الطواف والاستلام قبل الوقوف إنما هو بعض ما كانت سنته قريش بعد واقعة الفيل ومحاه الإسلام.

وأخلاق هؤلاء الأعراب في الحرم الشريف بخلاف ما هو معروف عنهم من شدتها؛ فإنك تراهم فيه على غاية ما يكون من السكينة واللين والتسامح، لا يقابلون الإهانة الشخصية إلا بالسكوت المطلق عن الإجابة عليها، وما ذلك إلا لشدة احترامهم حرمَ الله وإجلالهم لبيته المعظم[3].

وقال الأستاذ محمد حسين هيكل رحمه الله تعالى يصف حالهم عندما حج سنة ١٩٣٦:

"أتممنا السعي بين جماعة الساعين يزحمنا هذا ويدفعنا ذلك، ويعترضنا بين آن وآخر صف من النجديين شبكوا أيديهم بعضهم ببعض، فإذا صادفهم ساع صاحوا به: طريق! طريق! طريق!

(١) هذه العبارة وأمثالها -كما سبق آنفاً- من الأعراب لا يؤاخذون بها إن شاء الله -تعالى- لأنهم لا يقصدون بها إساءة الأدب ولا التعدي على مقام الألوهية العظيمة، والله أعلم.

(٢) أستغفر الله، والكلام في هذا كالكلام على سابقه.

(٣) "الرحلة الحجازية" نقلاً عن "المختار من الرحلات الحجازية": ٢/ ٨٠٠-٨٠١.

وانطلقوا في سعيهم ينادون ربهم بلغتهم: "رب اغفر، حتماً تغفر إن لم تغفر من ذا يغفر" وذكر بعض أصحابي أنه سمعهم يقولون: "رب اغفر، حتماً تغفر، إن لم تغفر جنتك تَصْفر"[1] [2].

ذرية بعضها من بعض!!:

وذكر ابن رُشيد الفهريّ السبتي[3] غريبة جرت له مع بعض الأعراب عندما حج سنة ٦٨٤ ذكّرنا فيها بحال الأعرابي الذي بال في المسجد زمان رسول الله ﷺ، فقال:

"ذكر غريبة جرت لنا بمسجد الخيف من منى:

وهو مسجد كبير ليس له باب يصونه ولا سقف يكنه، وبوسطه أو قريب من وسطه موضع فيه تجصيص، يقال: إنه مصلى النبي ﷺ، والله أعلم، يتبرك الناس بالصلاة فيه، وفي آخره في القبلة بقية سقف.

جاء أعرابي بدوي إلى ناحية من نواحي المسجد فرفع ثوبه وبال، فبادر الناس إليه وهموا به فصرفتهم عنه، واستدعيت ذنوباً

---

(١) أي تخلو.

(٢) "في منزل الوحي" نقلاً عن "المختار من الرحلات الحجازية": ٣/ ١١٦٦.

(٣) هو أبو عبدالله محمد بن عمر بن رُشيد الفهري السبتيّ المغربيّ. احتفل في صغره بالأدبيات وبرع فيها. ارتحل إلى بلاد عدة، وحج وجاور بمكة والمدينة، ونزل مصر، وله مصنفات كثيرة. كان فاضلاً حسن الأخلاق، توفي سنة ٧٢١ رحمه الله تعالى. انظر "الوافي بالوفيات": ٤/ ٢٨٤-٢٨٦.

مـن مـاء فصـببته عليـه، وأعلمـتهم بالسـنة الـواردة في ذلـك في الأعرابي البائل في مسجد النبي"[١].

طريفة تبين فصاحة غلمان الأعراب:

ذكر ابن جبير الأندلسيّ -رحمه الله تعـالى- مـا شـاهده مـن حال أحد صبيان أعراب السروات فقال:

"شاهدنا منهم صبياً في الحِجْـر قـد جلـس إلى أحـد الحجـاج يعلمه فاتحة الكتاب وسورة الإخلاص، فكان يقـول لـه: M ! " # $ L[٢] فيقول الصبي: "هـو الله أحـد"، فيُعيـدُ عليـه المعلـم، فيقول له: ألم تأمرني بأن أقول: هو الله أحد؟ قد قلـتُ، فكابـد في تلقينه مشقة، وبعد لأْي ما عَلِقت بلسانه، وكان يقول لـه: M ! " # $ % & ' ( ) * L[٣]، فيقول الصبي: "بسـم الله الرحمن الرحيم والحمد لله"، فيعيد عليه المعلـم، ويقـول لـه: "لا تقل: والحمد لله، إنما قُل: الحمد لله"، فيقول الصبي: "إذا قلتُ: بسم الله الرحمن الرحيم، أقول: والحمد لله، للاتصال، وإذا لم أقل: بسم

(١) "ملء العيبة بما جمع بطول الغيبة": نقلاً عن "المختار من الرحلات الحجازيـة": ١/١٤٣-١٤٤.

(٢) سورة الإخلاص: آية ١.

(٣) سورة الفاتحة: الآيات ١-٢.

الله، وبدأتُ قلت: الحمد لله"، فعجبنا من أمره، ومن معرفته طَبْعاً بصِلة الكلام وفصله دون تعلُّم.

وأما فصاحتهم فبديعة جداً، ودعاؤهم كثير التخشيع للنفوس، والله يُصْلِح أحوالهم وأحوال جميع عباده بمنه"[١].

(١) "رحلة ابن جبير" نقلاً عن "المختار من الرحلات الحجازية": ١/ ٧٨.

قصص وطرائف خاصة بزمزم...

ماء زمزم ماء مبارك، شرب منه النبي الأعظم e وأثنى عليه، وشرب منه الصالحون، وكانوا ينوون نيات متعددة صالحة أثناء شربهم، وكم شربه سقيم في عصرنا هذا فصح وطاب جسده، وتعافى من أمراض مستعصية، والأخبار في هذا كثيرة متعددة، وأما حال أسلافنا مع زمزم فعجيب أسوق شيئاً منه، فهذا عبدالله بن المبارك(١) -رحمه الله تعالى- أتى ماء زمزم فاستقى منه شربة، ثم استقبل الكعبة فقال: اللهم إن ابن أبي الموالي(٢) حدثنا عن محمد بن المنكدر(٣) عن جابر: أن رسول الله e قال: "ماء زمزم لما شرب له"، وهذا أشربه لعطش يوم القيامة، ثم شربه.

قال أبو القاسم التجيبي رحمه الله تعالى:

"والبركة بفضل الله تعالى موجودة في زمزم إلى يومنا هذا، وكذلك تكون -إن شاء الله تعالى- إلى يوم القيامة لمن خلصت نيته، وسلمت طويته، وقد جرّب بركتها جماعة من العُلماء والعباد

(١) عبدالله بن المبارك المروزي مولى بني حنظلة. ثقة ثبت، فقيه عالم، جواد، مجاهد، جمعت فيه خصال الخير، مات سنة ١٨١ وله ٦٣ سنة رحمه الله تعالى. انظر "التقريب": ٢٦٠.

(٢) عبدالرحمن بن أبي الموالي، زيد، أبو محمد، مولى آل علي، صدوق ربما أخطأ، مات سنة ١٧٣ رحمه الله تعالى. انظر "التقريب": ٣٥١.

(٣) محمد بن المنكدر بن عبدالله التيمي المدنيّ، ثقة فاضل، مات سنة ثلاثين ومائة، انظر المصدر السابق: ٥٠٨.

والصلحاء والزهـاد، فشـربوها لمطالـب لهـم جليـة فنالوهـا، قـال الحُميديّ[1]:

كنا عند سفيان بن عيينـة[2] فحـدثنا بحـديث زمـزم إنـه: "لمـا شرب له" فقام رجل من المجلس، ثم عاد فقال: يا أبا محمـد: ألـيس الحديث صحيحاً الذي حدثتنا في زمزم أنـه: "لمـا شـربه لـه"؟ فقـال سفيان: نعم، قال: فإني شربت الآن دلـواً مـن زمـزم علـى أنـك تحدث بمائة حديث، فقال سفيان: اقعد، فحدثته بمائة حديث[3].

وبلغنا عن القاضي الأجل الفاضل أبي بكر بن العربـي[4] -رحمه الله تعالى- أنه قال:

كنت بمكة مقيماً في ذي الحجة سنة تسع وثمانين وأربعمائة، وكنت أشرب مـاء زمـزم كـثيراً، وكلمـا شـربته نويـت بـه العلـم

---

(١) عبدالله بن الزبير بن عيسى القرشي الأسدي الحميدي المكي، أبو بكر، ثقـة، حـافظ، فقيه، أجل أصحاب ابن عيينة، توفي بمكة سنة ٢١٩ رحمه الله تعـالى. انظـر "التقريـب": ٣٠٣.

(٢) سفيان بن عيينة بن ميمون الهلالي، أبو محمد الكوفي ثم المكي، ثقة حافظ، فقيه إمـام، حجة، توفي سنة ١٩٨، وله إحدى وتسعون سـنة رحمـه الله تعـالى. انظـر "التقريـب": ٢٤٥.

(٣) هذا الصنيع من ذلك الرجل دالٌّ على حصافته وظرفه.

(٤) أبوبكر محمد بن عبدالله بن محمد المعافري الإشبيليّ، إمام علامة، حافظ متبحر، ولـد سنة ٤٦٨ بإشبيلية ونشأ بها، ثـم ارتحـل إلى مصـر والحجـاز والعـراق، كـان حسـن المعاشرة، وقد تولى القضاء في إشبيلية وكان صارماً فيه، له تآليف عديـدة، تـوفي سـنة ٥٤٣ ودفن في فاس رحمه الله تعالى. انظر "الديباج المذهب": ٢/ ٢٥٢-٢٥٦.

والإيمان، حتى فتح الله لي ببركته في المقدار الذي يسر لي من العلم، ونسيت أن أشربه للعمل، ويا ليتني شربته لهما حتى يفتح الله عليَّ فيهما، ولم يُقدر، ونسأل الله الحفظ والتوفيق برحمته.

وبلغنا أيضاً أن أبا بكر يحيى بن أحمد بن سعود الأنصاري القرطبي[(١)] شرب ماء زمزم لحفظ القرآن، فتيسر عليه حفظه في أقرب مدة، وكان حسن الصوت به والإيراد له، يستدعيه الولاة لصلاة التراويح بهم في رمضان.

قال ابن حيان[(٢)]:

حكى لي أبو محمد الحسني عن أبي الربيع أنه قال: حججت على شدة فقر، فوردت زمزم، وقد رويت الحديث في مائها إنه: "لما شرب له" فكرعت حتى تضلعت، ثم دعوت الله فأخلصت، وقلت: اللهم إني مصدق ما أداه رسولك الأمين في بركة هذا المشرب المعين، من أنه لما شرب له، فقد شربت اللهم بنية الدعاء واثقاً باستجابتك، وإني أسألك غنى فقري في دعة، وإسماء اسمي فيما انتحلته بحقيقة، ثم الشهادة في سبيلك والزلفى بها لديك، قال: فما أبعدت أن تعرفت الإجابة في الثنتين، وإني لمنتظر الثالثة، أما القرآن فما أحسب أن بأرضي أعلم به مني، وأما الغنى فقد نلت منه حاجتي، وكان قد نوه به سليمان بن حكم

(١) لم أقف على ترجمته.

(٢) لا أعرف من يُدعى بابن حيان، ولعله تحريف، والله أعلم.

المستعين[1]، وأجلسه للإقراء بالمسجد الجامع بقرطبة، وأصاب ثراء ورفعة، وأرجو بأن لا يحرمني الله الثالثة مع نفاري عنها، فخرج مع سليمان يقيم له صلاته على رسمه مع من قبله من الأمراء فأصيب في وجهه في الهزيمة بعقبة البقر في صدر شوال سنة أربعمائة، رحمه الله.

وأخبرنا الحاج أبو موسى عيسى الشدادي المغربي الريفي ثم النزغي أنه ولدت له بنية مقعدة، وأنها نشأت كذلك، قال: فحججت بها وطفت وسعيت، ثم أتيت بها زمزم، فسكبت عليها من مائها المبارك، فشفاها الله تعالى، وبرئت من علتها وصحَّت، وقد زوجتها وقرت عيني بها، هذا أو معناه أو قريب منه.

وقرأت بخط المحدث الرحال أبي إسحاق إبراهيم بن محمد السلمي، وأنبأنا بذلك ابنه العدل أبو القاسم عنه، قال: حدثني أبو عمرو التميمي، قال: لما أردت أن أشرب ماء زمزم فكرت لأي شيء أشربه، فتحيرت ثم تذكرت أن أشربه لإجابة الدعاء، قال: فما سألت الله في تلك المواقف في شيء إلا أعطانيه، إلا دخول

---

(١) سليمان بن الحكم بن سليمان الأموي، من ملوك الدولة الأموية في الأندلس، وتلقب بالمستعين بالله، وذلك سنة ٣٩٩، ولم يزل يقوى حتى ملك الزهراء وسرقسطة وقرطبة بعد حروب بينه وبين المؤيد، ثم قتل بعد أحداث سنة ٤٠٧، وكان أديباً شاعراً. انظر "الأعلام": ٣/ ١٢٣.

الجنة، قال: وكـان مـن سـؤالي ألا يحـوجني إلى الاستسـلاف مـن أحد، ففضلت لي فضلة كثيرة من الزاد، والحمد لله.

ومن مستطرف ما بلغني من القـول عنـد شـربها أن أعرابيـاً وقف على زمزم المذكورة فوجد الناس يشـربون منهـا، ويسـألون مطالب لهم مختلفة يختارونها، فرفع إناء مملوءاً منها إلى فيه، وقـال: اللهم إن هؤلاء قد اختاروا لأنفسهم فاختر لي، ثم شرب، هذا أو نحوه أو قريب منه[١].

---

(١) "مستفاد الرحلة والاغتراب": نقلاً عن "المختار من الرحلات الحجازية": ١/١٩٨-٢٠١.

قصص وطرائف خاصة بعرفات...

١. عرفات من الحل لا من الحرم:

لله تعالى حكمة في كل أفعاله، ومن أفعاله الحكيمة أنه قسم الأماكن إلى حرم وحِلّ فجعل عرفات من الحل لا من الحرم، وهذا أمر قد يستغربه بعض الناس لكنه معروف، لكن العجيب أن يجادل في هذا أحد العلماء، فهذا شمس الدين محمد بن النواجي[١] يحكي في كتابه المسمى "الغيث المنهمر فيما يفعله الحاج والمعتمر" أنه رأى شخصاً من أعيان القضاة الشافعية بالديار المصرية أراق دماً على جبل عرفات فقال له: ما هذا؟ فقال: دم تمتع، فقال: إنه غير مجزئ هنا، قال: ولِمَ؟ قال: لأن شرطه أن يُذبح في أرض الحرم وعرفات ليست من الحرم، فقال كالمنكر عليه: هذا المكان العظيم ليس من الحرم، قال: فقلت له: نعم ولا يقدح هذا في شرفه، قال: إذا لم تكن عرفات من الحرم فما بقي في الدنيا حرم!!"[٢].

(١) محمد بن حسن بن علي النَوَاجي، شمس الدين. عالم بالأدب، نقَاد. له شعر. من أهل مصر. ولد في القاهرة سنة ٧٨٨، ونسبته إلى نواج من غربية مصر. رحل إلى الحجاز، وطاف ببعض البلاد. له عدة كتب. توفي بالقاهرة سنة ٨٥٩ رحمه الله تعالى. انظر "الأعلام": ٦/ ٨٨.

(٢) "المختار المصون": ١/ ٥٠٨.

٢. عظيم مغفرة الله تعالى لعباده يوم عرفة:

الله تعالى غفار الذنوب، ستار العيوب، يجود على عباده يوم عرفة بغفران ملايين الذنوب، وإليكم ما ذكره الحافظ ابن ناصر الدين[١] -رحمه الله تعالى- حيث قال:

"وقف الفُضَيل بن عياض[٢] رحمة الله عليه بعرفة فنظر إلى نشيج الناس وبكائهم عشية عرفة فقال: أرأيتُم لو أن هؤلاء صاروا إلى رجل فسألوه دانِقاً[٣] أكان يردهم؟ قالوا: لا. قال: والله لَلمغفرة عند الله أهونُ من إجابة رجل لهم بدانِق"[٤].

٣. مغفرة الله لعباده يوم عرفة مغفرة حاصلة مؤكدة:

قد تضافرت الأحاديث والآثار في بيان أن المغفرة حاصلة للناس يوم وقفة عرفة، وأنها أمر مؤكد فلا ينصرفون حتى تغفر ذنوبهم ويعودوا كما ولدتهم أمهاتهم، وهذا الحافظ ابن ناصر الدين يذكر حكاية في هذا المقام فيقول:

(١) محمد بن عبدالله بن محمد القيسي الدمشقي الشافعي شمس الدين، الشهير بابن ناصر الدين. حافظ للحديث، مؤرخ. أصله من حماة وولد في دمشق سنة ٧٧٧. وولي مشيخة دار الحديث الأشرفية سنة ٨٣٧. قُتل شهيداً في إحدى قرى دمشق سنة ٨٤٢ رحمه الله تعالى. له عدة كتب.

(٢) الفضيل بن عياض بن مسعود التميميّ، أبو علي. الزاهد المشهور أصله من خراسان، وسكن مكة. ثقة عابد إمام مات سنة ١٨٧ رحمه الله تعالى. انظر "التقريب": ٤٤٨.

(٣) الدانق سدس الدرهم، وهو شيء كلا شيء.

(٤) "مجلس في فضل يوم عرفة": ٦٣.

"قال محمد بن الفضل بن عطية البخاري[١]: كنا بعرفات والمسلمون في الدعاء والتضرُّع إلى الله تعالى: فلما وَجَبت الشمس دَفَعْنا من عرفات، فقال لي كَرِيِّي[٢]: يا أبا عبدالله ما تُرى يَصنع الله بهؤلاء القوم؟ قلت: أرجو[٣]. قال: ترجو، ترجو!! فعظَّم ذلك، حتى خشيتُ أني قد أُسْقِطت، ثم قال: والله لو أن هؤلاء ذهبوا إلى شر خلق الله لَشُفِّعوا، فكيف أرحمُ الراحمين؟! لا، بل الله غفر لهم ألبتَّةَ. قال محمد بن الفضل: جمَّالي أعلمُ مني"[٤].

٤. فضل الله في عرفة على عباده:

يتجلى فضل الله على عباده يوم عرفة في عموم المغفرة لهم، لكن قد يكرم الله تعالى بعض الحجاج لإيمانهم العظيم وطاعتهم، وقد ذكر الحافظ ابن ناصر الدين رؤيا يُستأنس بها في هذا المقام حيث قال رحمه الله تعالى:

"حجّ بعض السلف فنام ليلةً، فرأى في النوم ملكين نزلا من السماء، فقال أحدهما للآخر: كم حجَّ العامَ؟ قال: ستمائة ألف. فقال: كم قُبِل منهم؟ قال: ستة، فاستيقظ الرجل مرعوباً قَلقاً مما رأى، ثم نام في الليلة الثانية، فرأى كأن الملكين نزلا وأعادا القول، وقال أحدهما: إن الله عز وجلّ وهب لكل واحد من الستة مائة

(١) لم أقف على ترجمته.

(٢) من الكراء وهو الأجرة، والمقصود الجَمّال الذي استأجره.

(٣) أي أرجو لهم المغفرة.

(٤) "مجلس في فضل يوم عرفة": ٦٣.

ألف"[1]. الله أكبر، ما أعظمَ فضل الله تعالى، وما أجمل صنيعه بعباده المؤمنين.

٥. حال إبليس في عرفات (١):

ما رؤي الشيطان قَطُّ في يوم أخزى منه في يوم عرفة، يوم يرى عدو الله تنزل المغفرة على العباد، وتفضل الله عليهم واستجابته لهم، وهذه قصة جرت له مع أحد الصالحين ذكرها الحافظ الإمام ابن ناصر الدين، فقال:

"قال علي بن الجارود[2]:

"كنا خرجنا في طلب العلم، فمررنا عشية عرفة أنا وصاحبٌ لي بمدينة قوم لوط، فقلت أنا لصاحبي -أو قال لي-: أُدخلْ نَتَطَوَّف في هذه السِّكك، ونحمدْ ربنا على ما عافانا مما ابتلاهم به، قال: فبينا نحن نطوف في تلك السّكك إلى غروب الشمس، إذا نحن برجل كَوْسَج[3] أشعثَ أغبرَ على جمل له أحمر، فوقف علينا فَسأَلَنا: من أنتم؟ فأخبَرْناه، فلما أراد أن يَجوزَنَا قلنا له: من أنت؟ فتغافل، فقلنا: لعلك إبليس! فقال: أنا إبليس، قلنا: يا ملعون من أين؟ قال: هذا وجهي من الموقف، رأيتُ اليوم ثَمَّ من كان يُذنبُ منذ خمسين سنة حتى كنت شَفَيْتُ صدري منه، فاليوم نزل عليه

---

(١) "مجلس في فضل يوم عرفة": ٦٢-٦٣.

(٢) لم أقف على ترجمته.

(٣) أي لا لحية له.

الرحمة، فلم أصبرْ في ذلك حتى وضعتُ الترابَ على رأسي، وجئت ههنا أنظُر إليهم[1]، يَسْكُنُ ما بي[2][3].

٦. حال إبليس في عرفات (٢):

وهذه حكاية أخرى حكاها الحافظ ابن ناصر الدين – أيضاً– فقال:

"روى الإمام أبو عثمان إسماعيل بن عبدالرحمن بن أحمد الصابوني[4] رحمه الله: أن رجلاً كان أسيراً ببلاد الروم، وأنه هرب من بعض الحصون، قال: فكنت أسيرُ بالليل وأَكْمُن بالنهار، فبينا ذاتَ ليلة أمشي بين جبال وأشجار، إذا أنا بحسّ، فراعني ذلك، فنظرتُ فإذا راكبُ بعير فازددتُ رعباً؛ وذلك أنه لا يكون ببلاد الروم بعير، فقلت: سبحان الله! في بلاد الروم راكب بعير؟! إن هذا لَعَجب!

فلما انتهى إليَّ قلت: يا عبدالله من أنت؟ قال: لا تسأل، قلت: إني أرى عجباً فأخبرني، فقال: لا تسأل، فأبيتُ عليه، قال:

---

(١) أي إلى مدائن قوم لوط، والعياذ بالله.

(٢) وذلك لأنه يُسر بأهل المعصية، ويغمه أهل الطاعة.

(٣) "مجلس في فضل يوم عرفة": ٥٩–٦٠.

(٤) هو إسماعيل بن عبدالرحمن بن أحمد، أبو عثمان الصابوني، مقدم أهل الحديث في بلاد خراسان، لقّبه أهل السنة فيها بشيخ الإسلام. ولد في نيسابور سنة ٣٧٣ وتوفي بها سنة ٤٤٩ رحمه الله تعالى. كان فصيح اللهجة، واسع العلم، عارفاً بالحديث والتفسير. يجيد الفارسية إجادته للعربية. له عدة كتب. انظر "الأعلام": ١/ ٣١٧.

أنا إبليس، وهذا وجهي من عرفات، واقَفْتُهم عشـية اليـوم أطَّلـع عليهم فنزلتْ عليهم الرحمـة والمغفـرة، ووُهِـب بعضُـهم لـبعض، فـدخلني الهـمُّ والحـزن والكآبـة، وهـذا وجهـي إلى قُسْـطَنطينية أتفرَّجُ[1] بما أسمع من الشرك وادِّعاء أن لـه ولـداً. فقلـت: أعـوذ بالله منك، فلما قلت هذه الكلمات لم أرَ أحداً[2].

---

(١) من التفريج عن النفس وإذهاب همها.

(٢) "مجلس في فضل يوم عرفة": ٦٠.

قصص متفرقة...

١. عجيبة في شأن الصيد البريّ:

قال ابن رُشَيْد الفِهري، رحمه الله تعالى:

"صحبني في الطريق من المدينة على ساكنها الصلاة والسلام قاصدين إلى البيت الحرام أحد الشيوخ من شرفاء المدينة، فلما وافينا رابغ رأيت أمراً عجباً من تخلّل الوحش: الغزال والأرنب بين الجمال والرحال، بحيث يناله الناس بأيديهم، والناس ينادون: حرام حرام، والجوارح قد سُلسلت خِيفة تعدي جاهل يعتسف المجاهل، فقال في ذلك الشيخ الشريف: تأمل تَرَ عجباً، هكذا جرت عادتنا في هذا الطريق، يؤمنا ونحن مُحرمون يَمُرُّ به من الوحش ما ترى، فإذا عُدنا مُحِلين لم نجد به شيئاً، فلما عدنا كان كما قال، فبان لي من معنى الآية الكريمة ما لم يكن غيّر بالمشاهدة، وكلام المفسرين على الآية معلوم يصدق على ما تناله الأيدي كالبيض والفراخ ممّا لا يستطيع أن يَفرَّ، وما يُنال بالرماح ونحوها ككبار الصيد"[(١)][(٢)].

---

(١) قال المحقق: كلام أكثره لا يقرأ أقمناه بما يناسبه من كلام المفسرين.
قلت: وقد ظل بعض الكلام غير مستقيم في سياقه ومعناه.

(٢) "ملء العيبة" نقلاً عن "المختار من الرحلات الحجازية": ١/ ١٣٦.

٢. كرامة ظاهرة:

قال ابن رُشَيْد الفِهري -رحمه الله تعالى- حاكياً حال أبي علي عمر بن الصواف نزيل الإسكندرية، وما جرى له معه من كرامة ظاهرة:

"كنت شديد الظمأ لأني كنت قد فارقت رحلي مع حركة المشيِ، فلما وافينا المزدلفة أخرج من عند رفيقه زميزمية صغيرة جداً، من التي تصنع في اليمن، تخفى تحت إبط الحامل بحيث يواريها إبطه فأفرغ لي منها فشربت ثم آثرت صحبي، وتركت لصاحبي الوزير أبي عبدالله ما قدّرت أنه لا يرويه، فشرب ثم ناول أصحابنا فشربوا بجملتهم، وليس منا من ترك الإناء إلا وهو يرى أن ما أفضل لا يروي صاحبه، ثم أفرغ لنا وتوضأنا، وكثر الله ذلك القليل فكفانا، وما عاينت بركة ولا كرامة ظاهرة لأحد من شيوخنا في سفر إلا تلك، وصلى بنا جمعاً على سنة الجمع، وفي الصبح أيضاً مثل ذلك فلم نحتج إلى تيمم، وبتنا خير مبيت في أنعم بال وأفضل حال، وقدم لنا يسير كِسَر مع نتفة من إدام كان فيه يسير خيار، فحصل لنا الري والشبع والصلاة بطهارة الماء ومماشاة ذلك الفاضل والاقتداء به في القفول من عَرَفة إلى منى، كما حصلت مماشاة الفاضل أبي محمد المرجاني في التوجه من منى إلى عرفة شرفهما الله، نحمد الله على جميل عوائده، وجزيل فوائده، فهو أهل الحمد والشكر"(١).

---

(١) "ملء العيبة" نقلاً عن "المختار من الرحلات الحجازية": ١/ ١٤٣.

٣. رؤيا رادعة:

قال أبو القاسم التجيبي رحمه الله تعالى يصف حال الشريف أبي نُمي حاكم مكة، ويذكر سبب إقلاعه عن الظلم فيقول:

"من لطف الله -تعالى- بنا أنّا ألفينا المجاورين بالحرم الشريف ممن قدم عهده فيه، وطال مقامه به يتحدثون على جهة التعجب عن كف يد الشريف أبي نمي عن أخذ أموال الحجاج والمجاورين، ومَن ظهرت له نعمة وعافية، وأن الناس قد صاروا يأمنون على دمائهم وأموالهم، وكذلك رأيناهم نحن بها آمنين، ومن كانت لديه دنيا أظهرها، ولبس الثياب الحسنة إذا شاء، وتأنق في المطاعم آمناً بعد أن كانوا قبل ذلك لا يلبسون ثوباً حسناً فيما بلغنا ولا يأكلون إداماً إلا يوماً في أيام، خوفاً منه لما يظهرون من التقشف، وسألناهم عن سبب كفه عنهم: ما هو؟ فذكروا لنا أنه رأى رؤيا هالته، مقتضاها أن النبي e وبَّخه على أفعاله، ونهاه عن ظلم الحجاج والمجاورين، وأخبره أنه إن لم يرجع عما يفعله من ذلك أنه بريء منه، فخاف من هذه الرؤيا خوفاً شديداً، ورجع عن كثير مما كان يفعل، وحسنت توبته، هذا أو معناه أو قريب منه"[١].

(١) "مستفاد الرحلة والاغتراب" نقلاً عن "المختار من الرحلات الحجازية": ١/ ١٩٥.

٤. من عجائب القافة[1]:

ذكر أبو القاسم التجيبي رحمه الله تعالى أنه سأل شيخه عماد الدين أبو الحسن المكيّ عن هذا الأمر ومدى صحته وانطباقه على واقع الأمر، وقصَّ ذلك فقال:

"سألته عن القافة: هل بقي منهم أحد في هذا الزمان؟ فقال لنا: نعم، بقي منهم قوم باليمن يأتون إلينا في زمن الحج يُعرفون بالمدلجيين، فينزلون في هذا الجبل، وأشار إلى جبل أبي قبيس المشرف على الحرم الشريف، ثم قال: ولقد اتفق لبعض الناس بمقربة من هذا التاريخ معهم أمر عجيب، وأظنه قال لرجل من أهل مصر؛ وذلك أنه كان لرجل غلام وجارية تزوج أحدهما من الآخر، فولد بينهما ولد كان لونه مخالفاً للون أبيه، فكأن بعض الناس تكلم في ذلك، واتهم السيد بالجارية، وفشا ذكر ذلك، ثم مات السيد المذكور، وخلف ابناً فكان يقال له: هذا الولد أخوك ألا تنظر إلى لونه، فوقع في نفسه من ذلك شيء، فأتى إلى مكة المعظمة زمن الحج، وجلب معه العبد وابنه المذكورين، وسأل عن القافة، فدل على المدلجيين فذهب إليهم وأراهم العبد والصبي، فقال له: هذا الصبي لهذا العبد لا شك فيه، ثم قالوا له: وأنت أيضاً لهذا العبد لاشك فيه عندنا، قال: فوقع في أمر أشد من الأول، فلما رجع من حجه انطلق إلى أمه وأخبرها الخبر، وقال لها: اصدقيني، فقالت: يا بني صدق القافة، والعبد أبوك، وذلك أن

---

(١) هم الذين يقصون الأثر، ويتفرسون.

الذي تذكر أنه أبوك كنت قد تزوجته فحنث بي مرة في يمين حلفها، فبنت منه، فشق عليه فراقي، فشاور بعض أصحابه وأصدقائه وهم فلان وفلان وفلان، وسمّت له ناساً يعرفهم ويثق بهم، فأشاروا عليه أن يزوجني من عبده هذا، فلما انقضت عدتي تزوجت به، فأصابني مرة واحدة، فولدت أنت منها، ثم فارقني العبد، فلما تمت عدتي ردني سيده، وكان كثير المال، وكان لا يولد له فتبناك كراهة أن يأخذ السلطان ماله، فهذا والله حديثك يا بني، فانطلق الفتى إلى أصحاب أبيه الذين سمتهم له فسألهم فأخبروه بصحة ما ذكرت له، هذا أو معناه أو قريب منه"[1].

هذا وللقافة هؤلاء أخبار عجيبة أخرى ضربت عن ذكرها صفحاً لأنها ليست لها صلة بالحج.

٥. رؤيا عجيبة تحققت:

ذكر الشيخ أبو القاسم التجيبي -رحمه الله تعالى- رؤيا رآها شيخه، فقال:

"قعدت بين يدي سيدي الشيخ الصالح العابد العامل الكامل عفيف الدين أبي محمد عبدالله بن عبدالحق الدَلاصي[2]، أعاد الله تعالى علينا من بركاته، بعد صلاة عصر يوم الجمعة الرابع والعشرين لذي قعدة من سنة ست وتسعين وستمائة بالموضع

(١) "مستفاد الرحلة والاغتراب" نقلاً عن "المختار من الرحلات الحجازية": ١/ ٢٠٣-٢٠٤.

(٢) مقرئ مكة. مصري الولادة والنشأة، المكي منزلاً، مكثر من التعبد. ولد سنة ٦٣٠ وتوفي سنة ٧٢١، رحمه الله تعالى. انظر "العقد الثمين": ٥/ ١٩٦-١٩٩.

الذي يقرئ فيه الكتاب العزيز من المسجد الحرام -زاده الله تعظيماً وتشريفاً- فقال لي:

رأيت النبي e فيما يرى النائم قاعداً في موضعي هذا، وأشار إلى الموضع الذي كان قاعداً فيه، فجئت فقعدت بين يديه في موضعك هذا، وأشار إلى الموضع الذي كنت قاعداً فيه بين يديه، قال: فمد e إلي يده اليمنى، فأخذتها وشددت عليها يدي معاً، فوالله ما مسست قط خزاً ولا حريراً كان ألين منهما، وكان عن يمينه، عليه الصلاة والسلام، طبق فيه رطب جني مغطى بثوب، فأخذ النبي e الطبق بيده المباركة وجعله بين يديه، ثم قال لي: "افتح فمك"، ففتحت فمي، فجعل يلقي فيه من ذلك الرطب واحدة بعد واحدة، وأنا آكل حتى كملت لي عشرون حبة، ثم استيقظت من منامي مسروراً، ثم عدت إلى النوم، فبينا أنا نائم إذ ناداني شخص باسمي، وقرع بابي، فنزلت إلى الباب فلم أجد أحداً، فعجبت من ذلك، ثم لما كان في الليلة الثانية وأنا نائم أيضاً ناداني أيضاً مناد باسمي وقرع بابي، فنزلت فلم أجد أحداً، ثم كذلك في الليلة الثالثة، ففكرت في أمري فعلمت أني دعيت للزيارة، وكانت عادتي أن أزور المدينة -على ساكنها الصلاة والسلام- في كل سنة مرتين، وكنت في تلك السنة قد كسلت عن الزيارة لشدة برد كان في ذلك العام، فلما نوديت في الليالي الثلاث علمت أني دُعِيت، فخرجت مع رفيق كان لي فزرنا القبر الشريف، وبقي علي أمر الرطبات ما أعلم له تأويلاً، ثم خطر لي

وأنا بالمدينة أن أنطلق إلى بيت المقدس وزيارة قبر الخليل عليه السلام، ففعلت، ثم خطر لي أن أصل إلى دمشق ولم تكن قط في قصدي، فوصلت إليها، فاتفق أن تلوت بها كتاب الله العزيز بعشرين رواية من عشرين تصنيفاً كلها عراقية لم أك قط رأيت منها شيئاً، وكنت قبل ذلك أقرأ القرآن العظيم بروايات أخرى من كتب أخر، فعلمت تأويل رؤياي، هذا أو معناه أو قريب منه"[1].

٦. حكاية في غار حراء:

ذكر ابن بطوطة[2] -رحمه الله تعالى- قصة جرت لأحد المجاورين فقال:

"جاور الشيخ أبو مهدي بمكة سنة ثمان وعشرين، وخرج إلى جبل حراء مع جماعة من المجاورين، فلما صعدوا الجبل ووصلوا لمتعبد النبي e ونزلوا عنه، تأخر أبو مهدي عن الجماعة، ورأى طريقاً في الجبل، فظنه قصيراً فسلك عليه، ووصل أصحابه إلى أسفل الجبل فانتظروه فلم يأت، فتطلعوا فيما حَولهم فلم يروا له أثراً فظنوا أنه سبقهم، فمضوا إلى مكة شرفها الله تعالى.

(١) "مستفاد الرحلة والاغتراب" نقلاً عن "المختار من الرحلات الحجازية": ١/ ٢٠٥-٢٠٦.

(٢) محمد بن عبدالله بن محمد اللُواتي الطَنجيّ، أبو عبدالله ابن بطوطة. ولد في طنجة سنة ٧٠٣. رحل إلى المشرق سنة ٧٢٥ وتوغل حتى بلغ الصين، وتولى القضاء بالهند سنوات. بقي في رحلته ٢٧ سنة. توفي في مراكش سنة ٧٧٩ رحمه الله تعالى. انظر "الدرر الكامنة": ٤/ ١٠٠، و"الأعلام": ٦/ ٢٣٥-٢٣٦.

ومضى عيسى في طريقه، فأفضى به إلى جبل آخر، وتاه عن الطريق، وأجهده العطش والحر، وتمزقت نعله، فكان يقطع من ثيابه ويلف على رجليه إلى أن ضعف عن المشي، واستظل بشجرة أم غيلان[1]، فبعث الله أعرابياً على جمل حتى وقف عليه، فأعلمه بحاله، فأركبه وأوصله إلى مكة، وكان على وسطه هميان فيه ذهب فسلمه إليه، وأقام نحو شهر لا يستطيع القيام على قدميه، وذهبت جلدتهما ونبتت لهما جلدة أخرى"[2].

٧. حكاية أخرى في غار حراء:

وقال ابن بطوطة أيضاً:

"ومما اتفق بهذا الجبل لصاحبين من أصحابي: أحدهما: الفقيه المكرم أبو محمد عبدالله بن فرحان الأفريقي التوزري، والآخر: أبو العباس أحمد الأندلسي الوادي آشي أنهما قصدا الغار في حين مجاورتهما بمكة -شرفها الله تعالى- في سنة ثمان وعشرين وسبعمائة، وذهبا منفردين لم يستصحبا دليلاً عارفاً بطريقه، فتاها وضلا طريق الغار، وسلكا طريقاً سواها منقطعه، وذلك في أوان اشتداد الحر وحمى القيظ، فلما نفذ ما كان عندهما من الماء وهما لم يصلا إلى الغار أخذا في الرجوع إلى مكة -شرفها الله تعالى- فوجدا طريقاً فاتبعاه، وكان يفضي إلى جبل آخر،

(١) قال المحقق: أم غيلان: شجرة السمر، من القاموس المحيط.

(٢) "رحلة ابن بطوطة" نقلاً عن "المختار من الرحلات الحجازية": ١/ ٢٢٨.

واشتد بهما الحر وأجهدهما العطش، وعاينا الهلاك، وعجز الفقيه أبو محمد عبدالله بن فرحان عن المشي جملة، وألقى بنفسه إلى الأرض، ونجا الأندلسي نفسه، وكان فيه فضل قوة، ولم يزل يسلك تلك الجبال حتى أفضى به الطريق إلى أجياد، فدخل إلى مكة -شرفها الله تعالى- وقصدني وأعلمني بهذه الحادثة، وبما كان من أمر عبدالله التوزري وانقطاعه في الجبل، وكان ذلك في آخر النهار، ولعبدالله المذكور ابن عم اسمه حسن، وهو من سكان وادي نخلة، وكان إذ ذاك بمكة، فأعلمته بما جرى على ابن عمه، وقصدت الشيخ الصالح الإمام أبا عبدالله محمد بن عبدالرحمن المعروف بخليل[1] إمام المالكية -نفع الله به- فأعلمته بخبره، فبعث جماعة من أهل مكة عارفين بتلك الجبال والشعاب في طلبه، وكان من أمر عبدالله التوزري أنه لما فارقه رفيقه لجأ إلى حجر كبير، فاستظل بظله، وأقام على هذه الحالة من الجهد والعطش، والغربان تطير فوق رأسه، وتنتظر موته، فلما انصرم النهار وأتى الليل وجد في نفسه قوة وأنعشه برد الليل، فقام عند الصباح على قدميه ونزل من الجبل إلى بطن واد حجبت الجبال عنه الشمس، فلم يزل ماشياً إلى أن بدت له دابة فقصد قصدها، فوجد خيمة للعرب، فلما رآها وقع إلى الأرض ولم يستطع النهوض، فرأته صاحبة الخيمة، وكان زوجها قد ذهب إلى ورد الماء فسقته ما كان

(١) خليل بن عبدالرحمن بن محمد، واشتهر بخليل، وهو غير خليل بن إسحاق صاحب المختصر المشهور، توفي سنة ٧٦٠ رحمه الله تعالى. انظر ترجمته في "نيل الابتهاج": ١/ ١٦٧-١٦٨.

عندها من الماء فلم يُرْو، وجاء زوجها فسقاه قربة ماء فلم يرو، وأركبه حماراً له، وقدم به مكة فوصلها عند صلاة العصر من الثاني متغيراً كأنه قام من قبر[1].

٨. جامع زوجه في الحرم الشريف:

وهذه أعجوبة عجيبة، ونادرة فكيهة، تدل على جهل مطبق، ذكرها الشيخ أبو سالم العياشي رحمه الله تعالى، فقال:

"حكى لي بعض المجاورين أنه وُجد في بعض المواسم رجل مع امرأة في الحرم الشريف، فحملا إلى الحاكم فشهدت البينة أنها زوجته، وقيل: ما حملك على ما فعلت؟ فقال: إنه لا أولاد لنا فرجوت أن تحمل المرأة ببركة هذا الحرم، فعُذر بجهله ولم يعاقب"[2].

٩. المال عزيز على النفوس:

ذكر الأستاذ محمد صادق[3] هذه القصة الدالة على عظم قدر المال في النفوس التي لم يهذبها الإيمان التهذيب الكافي، فيقول

---

(١) "رحلة ابن بطوطة" نقلاً عن "المختار من الرحلات الحجازية": ١/ ٢٤٠-٢٤١.

(٢) رحلة "ماء الموائد" نقلاً عن "المختار من الرحلات الحجازية": ١/ ٢٧٢.

(٣) فاضل مصري من العسكريين ولد بالقاهرة سنة ١٢٣٨، وتعلم بها وبباريس، وكان من أعضاء الجمعية الجغرافية. قام برحلة استكشافية عسكرية إلى الحجاز براً عن طريق الوجه إلى المدينة ووضع خريطة لذلك الطريق. له عدة رسائل ونظم. توفي بالقاهرة سنة ١٣٢٠ رحمه الله تعالى. انظر "الأعلام": ٦/ ١٦١.

متحدثاً عما جرى له بمحطة حدّا، وهي اليوم معروفة بين مكة وجدة:

"وفي هذه المحطة حضر عندي صباحاً شاب محرم سنه نحو ١٧ سنة، وأخبرني أنه خرج من مصر مع حاج من الأغراب الذين معنا، وأودع عند هذا الحاج أربع جنيهات، وأنه فقده في هذه المحطة، فأرسلت من يأتي به فلم يقع له على أثر لا في الخيام ولا في السوق فتردد إلينا صاحب الوديعة مراراً باكياً حزيناً على ماله طول يومه، ومن شدة الحر وانكشاف رأسه لأجل الإحرام اختل عقله، وعند قيام الركب وجدنا الذي عنده الوديعة واعتذر بأنه كان عند النهر لأجل غسل ثيابه ولم يمكني أخذ الوديعة منه وتسليمها لصاحبها لاختلال عقله، وما زال مختلف العقل حتى خرجنا من مكة قاصدين المدينة فرأينا الذي عنده الوديعة قاصداً المدينة أيضاً وتاركاً صاحبها بمكة عارياً من الثياب ومن العقل، فمنعته من السفر وقلت له: يجب عليك أن تعيد هذا المصاب إلى والدته بمصر فإنك تسببت في خروجه منها بإغوائك له، وأرسلته بكتاب إلى سعادة والي مكة ليرسله وصاحبه إلى جدة ثم منها إلى مصر، وقد حصل، وسبب ذلك ظنه ضياع ماله من جهة ومن شدة حرارة الشمس اختلاله من الجهة الأخرى فإن حرارتها في تلك البقاع مشهورة حتى إن المرحوم إسماعيل باشا راتب لما حل

بها قبلنا بشهر حُمّ من شدة الحرّ فمات بعد دخوله مكة بيومين - رحمه الله تعالى-[1].

١٠. الحقد أعمى:

وهذه الحكاية يقصها الأستاذ محمد صادق أيضاً -وهو مَن قص الحكاية السابقة- فيقول:

"وجدنا شاباً من الحجاج السائرين صحبة المحمل قتل غلاماً صغيراً فقبض عليه وأُتي به في الحال إلى خيمة الأمير، وقميصه ملوث بدم القتيل، ومعه سكين ماضية ملوثة بالدم أيضاً، فكتب بذلك محضراً بعد إقرار القتل، وتحفظ على القاتل حتى يصير تسليمه إلى محاكم مصر ليجازى بمقتضى القوانين.

وأصل هذا القاتل مسيحي من أقباط مصر اسمه بخوم مخائيل وسنه نحو اثنتين وعشرين سنة، وعلى ما قيل أسلم وخرج للحج خادماً لإحدى المُخدَّرات المشهورات بمصر، وتَسمى بأحمد أمين، وكان مع هذه الست بنتاها وجاريتها ووكيلها وولده الذي قُتل وسنه نحو اثنتي عشرة سنة، وكان أُخرج لهذا القاتل في مكة إعلام شرعي بإسلامه، ولما توجه المحمل إلى المدينة رافقوه فحصلت بين القاتل والوكيل أثناء الطريق مشاجرة، وقبل الوصول إلى المدينة بيومين حضر الوكيل عند الأمير متشكياً من

---

(١) رحلة "كوكب الحج" نقلاً عن "المختار من الرحلات الحجازية": ٢/ ٦٣٧-٦٣٨.

هذا الخادم ومخبراً بدينه الأصلي، وبأن بينه وبين الست اتحاداً وبأن ادعاءه الإسلام غش، فأمر الأمير بمنعه من دخول المدينة لزيارة الرسول -عليه الصلاة والسلام- وقد حصل، وبعد قيام المحمل من المدينة إلى طريق الوجه أمر الأمير تخلية سبيله وأن يُمنع من مخالطة خيمة سيدته، فلما وصلوا إلى الوجه أراد القبطي الانتقام من الوكيل فاغتال ولده خلف إحدى الخيم في الساعة الثالثة من النهار فكفاه على الأرض واحتز رأسه بالسكين فقطع على الفور نصف عنقه فمات حالاً، وكان بالقرب منهما شخصان سمعا صرخة القتيل فأقبلا لإغاثته فوجداه قد مات، فشدوا وثاق القاتل إلى أن عدنا من الوابور[1] وعمل المحضر كما ذكرنا، وقد اتهم هذا القاتل سيدته بأنها هي التي أغرته بذلك، وإن إحدى بنتيها أعطته السكين وجاريتها أمسكته له من يده ورجله ليقتله ذبحاً لكن ظهر كذب دعواه في مساعدة الجارية له على ذلك؛ لأن الشخصين الشاهدين المذكورين شهدا بأنه قتله وحده، ولما وصلوا إلى مصر سلم القاتل إلى محكمة مصر ليحاكم فيها[2]".

١١. مائدة افرنجية فخمة في الصحراء!:

إن من شأن ساكني الصحراء وعابريها أن يكونوا متقشفين، يقنعون بشيء يسير من الطعام، شعثاً غبراً خاصة قبل ظهور

(١) أي الباخرة.

(٢) "كوكب الحج" نقلاً عن "المختار من الرحلات الحجازية": ٢/ ٦٦٤-٦٦٥.

السيارات، وانتشار الرفاهية، لكن الأستاذ محمد لبيب البَتَنُونيّ يصف حال معسكر الخديوي عباس حلمي[1] حاكم مصر السابق، وقد عسكر في بحرة التي كانت صحراء جرداء تلك الأيام، يصفه وقد كان في الرفاهية بالغاً غاية عجيبة، فيقول:

"كنت ترى معسكر الجناب العالي في نظام لم يسبق له نظير بالمرة، وإلى شرقية سرادق حضرات أنجال الشريف[2] التي مدت فيه ظهر ذلك اليوم مائدة على النظام الإفرنجي تسع مائة مدعو لضيافة سمو الأمير ومَن في معيته، وعلى الخصوص في العشاء الذي حضر مولانا الخديوي، وكان أناب عنه في الغداء دولة الْبِرِنْس[3] أحمد كمال الدين باشا، أما النظام والزينة في هذه المائدة فقد كانا مدهشين جداً لعدم انطباقهما بالمرة على حال هذه

(١) عباس حلمي بن توفيق إسماعيل حفيد محمد علي باشا. ولد بالقاهرة سنة ١٢٩١، وتعلم بمدرسة عابدين ثم في فيينا. وولي الخديوية -أي حكم مصر- بعد وفاة أبيه سنة ١٣٠٩ بإذن السلطان في إسطنبول. قصد أوروبا فاسطنبول مصطافاً سنة ١٩١٤ فنشبت الحرب العالمية الأولى وهو باسطنبول فتأخرت عودته فخلعته الحكومة البريطانية -المستولية على مصر- بهذه الحجة وعينت غيره. استقر عباس في لوزان بسويسرا إلى أن ولي أحمد فؤاد فنزل له عباس عن الحكم سنة ١٩٣١ وقضى بقية حياته مغترباً حتى توفي بسويسرا سنة ١٣٦٣-١٩٤٤ ودفن في القاهرة. كان فيه بخل مع سرف في الملذات. انظر "الأعلام": ٣/ ٢٦٠-٢٦١.

(٢) أي الشريف حسين بن علي حاكم مكة.

(٣) أي الأمير، وهي لفظة إفرنجية كانت متداولة آنذاك ثم توارت خجلاً الآن، ولله الحمد.

البداوة التي رأينا أنفسنا ساعةً ونحن بين فيافيها[1] كأننا بين جدران البهو الكبير في نزل الكونتيننتال بالقاهرة أثناء مأدبة من المآدب الكبرى، نعم كنت تجد الطعام على كثرة صنوفه جمع إلى نظافته لذة طعمه، وكانت ثريات النور الأبيض تتلألأ منتشرة في أرجاء الصيوان مما كان ينير جو بحرة بأجمعه حتى لكأننا في رابعة النهار"[2].

(١) أي صحاريها.

(٢) "الرحلة الحجازية": نقلاً عن "المختار من الرحلات الحجازية": ٢/ ٧٦٦-٧٦٧.

طرائف متفرقة...

١. دهاء حاج أعجمي ثريّ:

ذكر ابن جبير الأندلسي قصة طريفة تبين كيف كانت تسير أحوال الحرم المكي ومَن يشرف عليه، وكيف يحتال الذكي للوصول إلى غرضه بوسائل متعددة منها ما صنعه حاج أعجمي ثريّ مع أمير مكة، فقال رحمه الله تعالى:

"ومن الأمور المحظورة في هذا الحرم الشريف زاده الله تعظيماً وتكريماً أن النفقة فيه ممنوعة، لا يجد المتأجّر من ذوي اليَسار إليها سبيلاً في تجديد بناء، أو غير ذلك مما يختص بالحرم المبارك، ولو كان الأمر مباحاً في ذلك لجعل الراغبون في نفقات البر من أهل الجِدَة[1] حِيطانه عَسْجَداً[2] وترابَه عنبراً، لكنّهم لا يجدون السبيل إلى ذلك، فمتى ذهب أحد أرباب الدنيا إلى تجديد أثر من آثاره، أو إقامة رسم كريم من رسومه أخذ إذنَ الخليفة في ذلك، فإن كان مما يُنْقَش عليه أو يُرسَم فيه طُرّز باسم الخليفة ونفوذ أمره بعمله ولم يُذْكر اسم المُتولي لذلك، ولا بد مع ذلك من بذل حظ وافر من النفقة لأمير البلد ربما يوازي قدرَ المنفوق فيه فتضاعف المؤونة على صاحبه، وحينئذ يصل إلى غرضه من ذلك.

(١) الجِدَة: الغنى.

(٢) العَسْجَد: الذهب.

ومن أغرب ما اتفق لأحد دُهاة الأعاجم، ذوي الملك والثراء، أنه وصل إلى الحرم الكريم مدةَ جَدٍّ هذا الأمير مكثر، فرأى تنّور بئر زمزم وقبتها على صفة لم يرضها، فاجتمع بالأمير، وقال: أريد أن أتأنق في بناء تنور زمزم وطَيّه وتجديد قبته، وأبلُغ في ذلك الغاية الممكنة، وأنْفِق فيه من صميم مالي، ولك علي في ذلك شرطٌ أبْلُغ بالتزامه لك الغرض المقصود، وهو أن تجعل ثِقةً من قِبَلِك يُقيد مبلغ النفقة في ذلك، فإذا استوفى البناء التمام، وانتهت النفقة منتهاها، وتحصلت مُحْصاةٌ بذلت لك مثلها جزاءَ على إباحتك لي ذلك.

فاهتز الأمير طمعاً، وعلم أن النفقة في ذلك تنتهي إلى آلاف من الدنانير -على الصفة التي وصفها له- فأباح له ذلك، وألزمه مقيّداً يحصي قليل الإنفاق وكثيره، وشرع الرجل في بنائه واحتفل واسْتَفَرَغَ الوُسْع(١) وتأنق وبذل المجهودَ، فِعْلَ مَن يقصد بفعله ذات الله عز وجل ويُقْرِضُه قَرْضاً حسناً، والمُقيد يُسود طَواميره(٢) بالتقييد، والأمير يتطلع إلى ما لديه، ويؤمل لقبض تلك النفقات الواسعة بَسْطَ يديه، إلى أن فرغ البناء على الصفة التي تقدم ذكرها أولاً عند ذكر بئر زمزم وقبته، فلما لم يبقَ إلا أن يصبح صاحب النفقة بالحساب ويَستقضيَ منه العدد المجتمع فيها، خلا منه المكان،

---

(١) الوسع: الطاقة والاستطاعة.

(٢) الطوامير، الواحد طامور، وطومار: الصحيفة.

وأصبح في خبر كان، وركب الليلَ جملاً، وأصبح الأمير يقلّب كفيه، ويضرب أَصْدَرَيْه[(١)]، ولم يمكنه أن يُحْدِث في بناء وُضعَ في حرم الله تعالى حادثاً يحيله، أو نقضاً يُزيله، وفاز الرجل بثوابه، وتكفل الله به في انقلابه وتحسين مآبه: ﴿وَمَآ أَنفَقۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَهُوَ يُخۡلِفُهُۥۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾[(٢)]، وبقي خبر هذا الرجل مع الأمير يُتهادى غرابةً وعجباً، ويدعو له كل شارب من ذلك الماء المبارك"[(٣)].

٢. الأعمش والجمّال:

قال أبو القاسم التُجيبيّ -رحمه الله تعالى-:

بلغنا أن الأعمش[(٤)] -رحمه الله- خرج إلى مكة حاجاً، فكان الجمال يؤذيه، فكان الأعمش يقوم إليه كثيراً فيضربه، فقال له الجمال يوماً: الميعاد بيني وبينك الإحرام، فلما أحرم الأعمش

---

(١) الأَصْدران: عرقان تحت الصدغين.

(٢) سورة سبأ: الآية، ٣٩.

(٣) "رحلة ابن جبير" نقلاً عن "المختار من الرحلات الحجازية": ١/ ٦٨-٦٩.

(٤) هو سليمان بن مهران الأسدي بالولاء، أبو محمد، تابعي مشهور، ولد سنة ٦١، ومنشؤه ووفاته بالكوفة، كان عالماً بالقرآن والحديث والفرائض، وهو رأس في العلم والعمل، توفي سنة ١٤٨ رحمه الله تعالى. انظر ترجمته في "سير أعلام النبلاء": ٦/ ٢٢٦ وما بعدها.

تعرض إليه الجمّال، فقام إليه يضربه بعصاه، فقال له: الإحرامَ، الإحرامَ يا أبا محمد، قال: ضربي إياك من مناسك الحج[1][2].

٣. جهلة الحجاج وحالهم مع الجمرات:

ذكر الأستاذ إبراهيم رفعت بعض أحوال جهلة الحجاج، وماذا يصنعون عند الجمرات فقال -رحمه الله تعالى-:

"من فكاهات الحجاج عند رمي الجمرات أن بعضهم كان يرمي الحصيات السبع دفعة واحدة ويخاطب إبليس بلفظة: "يلعن دينك"، وبعضهم كان يرمي حصاة حصاة ويقول العبارة السابقة عقب كل واحدة أو يقول: "في عين دينك"، وبعض الحجاج لا يكتفي بالحصيات الصغيرة بل يأتي بأحجار كبيرة ويرمي بها الجمرة "العمود القائم" بل لا يرتاح له بال إلا إذا هدم جزءاً من البناء، ومنهم من يقف على البناء ويرمي، ومنهم من يلصق به جسده ويرمي؛ وقد كان من الضباط الذين معنا "اليوزباشي" عبدالوهاب حبيب أفندي، فلما جاء وقت رمي جمرة العقبة أخذ عساكر الحرس ورجموا إبليس (الجمرة) دفعة واحدة بهيئة هجوم على عدو وانتقام منه"[3].

---

(١) كان الأعمش كثير النوادر، وهذا الذي صنعه مع الجمّال من هذا القبيل.
(٢) "مستفاد الرحلة والاغتراب" نقلاً عن "المختار من الرحلات الحجازية": ١/ ١٧١.
(٣) "مرآة الحرمين" نقلاً عن "المختار من الرحلات الحجازية": ٢/ ٦٧٩.

قلت: هذا وقد رأيت في إحدى الحجج التي حججتها قبل قرابة عشر سنوات منظراً عجيباً لا أنساه، ألا وهو أن أحد الحجاج الأفارقة السود صعد إلى إحدى الجمرات فالتزم العمود الشاخص وصار يضربه بحرقة، والحجارة تنهال عليه من كل مكان، والدم يتدفق من جسده كأنما هو مرجوم في حد، وهو لا ينتهي مع ذلك ولا ينزل، ولله تعالى في خلقه شؤون.

هذا وقد بلغ الجهل بأحد الحجاج بحجه في أوائل القرن الفائت أن رمى عمود الجمرة برصاص مسدسه، وهذا من أعجب ما ينقل(١).

٤. مجاراة المطوفين لأعاجم الحجاج:

ذكر الأستاذ محمد لبيب البتنونيّ رحمه الله تعالى حال بعض المطوفين مع أعاجم الحجاج، وكيف أنهم يلوون ألسنتهم ليفهموا أولئك الأعاجم فيقول عنهم:

"يحرفون ألفاظ القرآن الكريم عمداً أثناء الطواف، بتفخيمهم ما لا يجوز تفخيمه أو ترقيقهم ما لا يصح ترقيقه، بل منهم من يقلب الحرف بآخر لتقريبه إلى نطق السامع إن كان تركياً أو هندياً أو فارسياً، فيقولون مثلاً: (وكنا عذاب النار) في قوله تعالى:

---

(١) ذكر ذلك الأستاذ محمد لبيب البتنوني في "الرحلة الحجازية"، انظر المصدر السابق: ٢/ ٨٠٨.

M µ ¶ ، L و (مهمد رسول الله) في (محمد رسـول الله) و (يا أرهـم الـراهمين) في (يـا أرحـم الـراحمين) و (اللـهم)[1] في (اللهم) ونحو ذلك مما لا يجوز شرعاً ولا اجتماعاً"[2].

قلت: وقد ذكر لي صاحب لي من أهل العلم أنـه سمـع في طوافه من أحد المطوفين أمراً أعجب من هذا وأطرف وأفكه لكنـه كان المطوف أحد الأعاجم، فسمعه يقول: "إن اللّلا" ويـردون عليـه: "إن اللّلا" ثم يقول: "هامُوهِي" فيردون: "هـامُوهِي" ثـم يقـول: "طُنْبِلْكَـا" فيقولن: "طُنْبِلْكَا" ثم يقول: "فِرِيْنَا" فيردون: "فِيْرِينَا" وترجمة هـذا اللغـز هو أنه يريد أن يقـرأ قولـه تعـالى: M K L M L فحرّفـه وجزّأه، ومدّ ما لا يمد، وأطلق الحركـات حتـى صـارت حروفـاً، فخرج كما ترى أخي القارئ!!

(١) بترقيق اللام، والصحيح هو التفخيم.

(٢) "الرحلة الحجازية" نقلاً عن "المختار من الرحلات الحجازية": ٢/ ٧٨٨-٧٨٩.

أحداث متفرقة في الحج أصبحت غريبة الآن...

منها السعي على الجواد عوضاً عن السعي على الأقدام[1].

ومنها السعي بسيارة، وهذه أغرب، وقد سعى بالسيارة عدد من الملوك والرؤساء والوجهاء[2].

***

تم الكتاب ولله الحمد

***

(١) ومنهم الشيخ عبدالله بن بليهد عالم نجد، ورآه يسعى على الجواد، د. محمد حسين هيكل رحمهما الله تعالى. انظر "المختار من الرحلات الحجازية": ٣/ ١١٦٧.

(٢) منهم الملك الراحل سعود رحمه الله تعالى، ومنهم الأديب إبراهيم المازنيّ، انظر "المختار من الرحلات الحجازية": ٣/ ١٠٦٠-١٠٦١ فقصته طريفة.

المراجع

- القرآن الكريم.

١. "الأعلام" الأستاذ خير الدين الزركلي (ت ١٣٩٦).

نشر دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الخامسة سنة ١٩٨٠.

٢. "تقريب التهذيب" الحافظ ابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي (ت ٨٥٢).

تحقيق الأستاذ محمد عوامة، نشر دار الرشيد، حلب، الطبعة الأولى.

٣. "مجلس في فضل يوم عرفة" الحافظ ابن ناصر الدين الدمشقي.

٤. "المختار المصون من أخبار القرون" لواضع هذه الرسالة.

نشر دار الأندلس الخضراء، جدة، الطبعة الأولى سنة ١٤١٥.

٥. "المختار من الرحلات الحجازية إلى مكة المكرمة والمدينة النبوية" لواضع هذه الرسالة.

نشر دار الأندلس الخضراء، جدة، الطبعة الأولى سنة ١٤٢١.

٦. مجلة "المسلمون": مجلة إسلامية كانت تصدر من مصر ثم سوريا ثم جنيف، ثم انقطعت، وكان قد رأس تحريرها أعلام كبار في العالم الإسلامي.

الفهرست